طه الشريف

البحث عن جناحي طائر

رواية

مركز الحضارة العربية

البحث عن جناحي طائر

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

E.mail: hadaraa1990@gmail.com

طه الشريف

البحث عن جناحي طائر

رواية

إهداء

إلي تلك الطيور التي تعانق السماء

برغم أفواه العواصف

١

من قتل جامع صالح

الإثنين 2 يناير 2017

قتيل يا أهل البلد...

بهذه الصرخة ارتفع صوت أول مُبصر لجثة جامع الملقاة على مشارف الطريق المؤدي إلى القرية، كان الجسد مُلقى على ظهره وملامح الدهشة الممزوجة بالذعر قد تجمدت على وجهه كآخر تعبير له في الحياة، وبركة دماء صغيرة أسفل رأسه وحولها حيث الرصاصة التي اخترقت مقدمة جبهته فأحدثت ذلك الثقب الغائر الذي أودى بحياته.

كان معظم أهل السلامية يستعدون للذهاب لمزارعهم وأعمالهم حين طاف ذلك الخبر القرية فلم ينتصف نهار ذلك اليوم الأمشيري البارد حتى أصبح حديث السلامية والقرى المجاورة، حتى التلاميذ العائدون من مدارسهم اشرأبت أعناقهم عند مرور السيارة الربع نقل التي يتكدسون في صندوقها المكشوف حتى يتمكنوا من رؤية مكان الجريمة على الطريق الشرقي، حيث كانت الشرطة والنيابة قد أنهيتا عملهما ولم يتبقَ في المكان غير آثار الدماء المتجلطة، في البداية ظن أحمد مهدي وكيل النيابة أنه أمام قضية قتل بغرض السرقة حيث كان القتيل عائدًا من قريته الشيخ موسى ومعه حصيلة بيع أملاكه كما دلت بذلك التحريات الأولية، ثم اتضح أن الأمر أعقد من ذلك بكثير فثمة أسئلة جديدة واحتمالات متعددة بدأت تظهر بعد وصول أحاديث

تضع الجريمة في خانة القتل من أجل القتل ولعله بغرض السـرقة بجانب التخلص من القتيل وإزاحته من طريق أشـخاص بات يمثل لهم جامع عائقًا أمام تحقيق رغباتهم أو مصالحهم.

كانت الاتهامات تتوزع على ثلاثة أشخاص فقط:

عم القتيل غالب همام الذي خسر استفادته من أملاك ابن أخيه التي كان يستأجرها بمبلغ زهيد، وغدا من أكبر الوارثين لابن أخيه الذي لم ينجب...

وزوجة القتيل "موَدّة" التي لم ينجب منها طوال سبع سنوات...

ثـم ذلك الكاتب الذي ترك القاهرة وأضواءها وعاد إلى تلك القريـة النائية لأسـباب غيـر معروفـة وإن كانت علاقتـه بموَدّة زوجة القتيل قبل سنوات ومقابلته إياها في منزله بعد عودته أمرًا تهامسـت به بعض الألسـنة وسـرى هذا التهامس إلى من نقله إلى وكيـل النيابة، وهكذا بدأت سـحب الغموض تتكاثف وتظلل حياة قريتين كانتا هادئتين قبل وقوع تلك الجريمة، قرية الشيخ موسى التي ينتمي إليها القتيل، وقرية السلامية التي وقعت الجريمة على مشارفها وإليها ينتمي اثنين من المتهمين الرئيسيين.

***

٢

التحقيق مع أنس

غرفة عتيقة قياسًا لعام ٢٠١٧، بجوار وكيل النيابة يجلس الكاتب مستعدًا للتدوين، وفكر "أنس" للحظة لماذا ما زالوا متمسكين بقلم ذلك الكاتب ولم يستعيضوا عنه بكاميرا معلقة في الحائط المقابل مثلاً تسجل ما يدور، ولم يتركه وكيل النيابة يسترسل في تلك الأفكار السخيفة على الأقل بالنسبة للموقف الذي هو فيه.

كان السؤال تقليديًا: اسمك؟ سنك؟ مهنتك؟

كان المحقق أبيض البشرة مستدير الوجه في غير سمنة ثلاثيني العمر بدأ الشعر الأبيض يغزو شعره الغزير...

أجاب: أنس محمود الجبالي، ٢٨سنة، كاتب وروائي...

حين نطق الكلمة الأخيرة ظن "أنس" أن المحقق سيدعوه للجلوس ولكنه أدرك خطأ ظنه سريعًا حين استأنف أسئلته بنفس الوجه الجاف الخالي من التعبير، والصوت الذي يبدو أنه اكتسب نغمة رسمية يُعامل بها كل المتهمين:

ـ "أنس" أنت متهم بقتل جامع صالح، مساء يوم ٢ يناير، بماذا ترد؟

كان لوقع الاتهام صدى زلزل كيان "أنس" رغم أنه كان يعرفه منذ أُلقي القبض عليه من قلب منزله وتحت سمع وبصر أمه التي انتحبت لمرآه في ذلك المشهد وأبيه الذي بُوغت ولم يملك سوى يدين تمسكان بقوة بأمه سنية وأخته شيماء لكي لا تخرجان خلف الجنود الذين كبّلوه، ولسان حاول جاهدًا أن

يستفسر عن سبب القبض على ابنه هكذا ، وفي الخارج شفاه تمصمص وأكف تضرب بعضها البعض تعجبًا واندهاشًا حيث أهل القرية الذين تصادف وجودهم بالقرب من بيت عبد الفتاح الجبالي حينها ، أهل القرية أولئك الذين لم ترحمه ألسنتهم قديمًا وحديثًا... يااااه...

هكذا خرجت من "أنس" متجاوزة ملكوته الداخلي إلى عالم الغرفة المحبوس بين أربع جدران، وسرعان ما ارتدت نفس الكلمة إلى سمعه ولكن بصوت وكيل النيابة الذي صاح فيه قائلاً:

ـ ياه... ماذا يا أستاذ؟

هكذا ضاغطًا على كلمة أستاذ لكي يفهم "أنس" أنها تُنبئ عن تململه وضيقه، وليس تقديرًا واحترامًا لشخصه، فأجاب:

ـ أنني بريء من هذا الاتهام، وليس لي أي علاقة بالقتيل.

واستطرد بعد أن حاول بكل قواه أن يستجمع كيانه المشتت بين ذكريات الماضي التي تطارده ووقع الحاضر المؤلم الذي يحاصره:

ـ سيادة الوكيل حضرتك تتهمني بقتل إنسان أنا لا أعرفه ولم أره من قبل، وأنا كاتب ولي سمعتي ولا يمكن أن أفكر في ارتكاب جريمة بشعة مثل تلك.

أنهى "أنس" إجابته وهو ينظر إلى وجه وكيل النيابة علّه يستشف من ملامح وجهه أو رسائل عينيه بادرة تصديق أو حتى مجرد تعاطف، ولكن لم يكن ثمة تغيير فالملامح على جمودها والعينين وكأنهما لم يعودا مرآة النفس ولم يعد بالإمكان إلا انتظار ما سيصدر عن لسان المحقق.

ـ هل الكُتّاب معصومون من ارتكاب الجرائم يا "أنس" يا كاتب ولّا أقول يا ناشط أفضل وأدق.

هكذا شعر "أنس" فجأة أن دلو ماء بارد نزل فوق رأسه وهو يسمع لفظ ناشط وتذكر ثورة يناير وما بعدها، حين كان صوته يرتفع في ميدان التحرير ضد الفساد والتوريث، لم يكن حينها لفظ ناشط سيئ السمعة، أو يُتهم أصحابه بالعمالة والخيانة، تُرى أيكون وكيل النيابة من مؤيدي الرئيس السابق أو مبدأ التوريث، ولِمَ لا فقد يكون هو نفسه من أسرة توارثت هذا المكان أبًا عن جد، ولكن حتى لو كان... أيمكن أن يكون أي موقف مسبق من آرائه السابقة له علاقة بما هو متهم به الآن... وسريعًا أبعد هذا الخاطر عن خياله فرغم كل شيء هناك قتيل يربطه به خيط ولو من بعيد أو ليقل من قريب، ولِمَ لا أو ليس القتيل هو من اقترن بمن لم يكن في القلب سواها، وانتبه من الأفكار التي تتعارك داخل رأسه على صوت وكيل النيابة وهو يُعنفه، وكأنه تلميذ بليد يقف أمام أسئلة مدرسه خائبًا لا يدري ما يقول.

ـ للآن يا "أنس" لم تجب عن الاتهام الموجه لك؟

"أنس" مسرعًا:

ـ لقد سبق وأجبت، وأكرر ليس لي علاقة بهذه بالجريمة، وبالنسبة لموضوع الكاتب أنا لم أكن أقصد أن الكاتب لا يُخطئ، ولكن كنت أقصد أن الإنسان العادي لا بد أن يفكر ألف مرة قبل ارتكاب جريمة بشعة كتلك، فما بالك بالإنسان المثقف الواعي...

وأخيرًا رأى "أنس" تلك الصخرة الصماء التي تسمى وجه تستدير لتخبر الكاتب المدون قائلة:

ـ وأنكر المتهم علاقته بالجريمة...

ثم استدارت لتواجه "أنس" مرة أخرى وقد لانت ملامحها... وقال صاحبها في غير حِدة:

ـ "أنس" أنت أنكرت أي علاقة لك بالجريمة، ممكن تخبرنا عن طبيعة علاقتك بالسيدة "موّدّة" راشد؟

كان هـذا السـؤال فـي الواقع جل ما يخشـاه، ولكنه كان مسـتعدًا بالإجابة القاطعة التي ظن أنها سـتنجيه، هكذا كان ظنه الذي سيتضح خطأه الفادح فيما بعد:

ـ حضرتك أنا ليس لي أي علاقة بالسـيدة "موّدّة" وهي سـيدة متزوجة وأنا مقيم في القاهرة منذ سـبع سـنوات وأكثر لم أزر خلالها القرية.

ـ حسنًا... وقبل أن تسافر؟

كان سـؤالاً شـعر معه "أنس" أن المحقق يريـد أن يأخذه إلى حيث لا يمكنه إنكار رغبته القديمة بالزواج من "مَوَدّة" وما حدث حينها واضطراره إلى مغادرة القرية إلى القاهرة ولكنه أجابه بثقة:

ـ نعـم لقـد تقدمت بالفعل لطلـب يدها قبل سـفري لكن لم يحدث نصيب كما يُقال في قريتنا...

وشعر "أنس" بالراحة لاعتقاده أن التحقيق بدأ يأخذ منحى في صالحه، أو هكذا ظن قبل أن يُلقي إليه بالسؤال التالي:

ـ وبعـد مـا رجعت هل قابلت المتهمة "مـوَدّة" أو كان بينكم أي اتصال؟

وأجاب "أنس" بالنفي، وكان هذا هو خطأه الفادح حيث خشى أن يخبره بأمر اللقاء الذي جرى في بيت أبيه عبد الفتاح ظنًا منه أنـه بذلك يقطـع أي خيط يربطه بتلك القضية، وللعجب فإن تلك الكذبة هي ما أدت إلى غوص أقدامه فيها أكثر فأكثر.

بملامح امتزجت فيها نبرة السخرية بملامح الوجه الجامدة:

ـ أو ليس عيبًا يا أستاذ يا أديب أن تكذب.

كانت وكأنها رصاصه حارقة اخترقت أذنه وزلزلت كيانه فوقف مبهوتًا تنز من جبهته حبات عرق باردة لم يدر كيف أخرجها جسده، وشهر أمشير في أوج عنفوانه، وفكر كيف وصلت تلك المعلومة بتلك السرعة إلى النيابة، وسرعان ما جاءته الإجابة في شكل صوت ساخر دوى داخله ذكره بأنه في السلامية التي تعيش على القيل والقال فأردف:

ـ حضرتك... هي صديقة أختي شيماء وكانت موجودة معها في بيت والدي تزورها ولقد شاهدتها صدفة ولم تمكث بل غادرت مباشرة عقب دخولي البيت.

- وكيل النيابة ولماذا لم تذكر ذلك عندما سألتك عن رؤية المتهمة "مَوَدّة" بعد عودتك من القاهرة؟

وصمت "أنس" فقد شعر بأن عينيه ستفضحان أي محاولة جديدة للكذب، وكأنه كان يعلم ما يدور في دخيلة نفسه لم يكرر المحقق سؤاله، بل التفت إلى الكاتب المتحفز بجواره وقال:

ـ وامتنع المتهم عن الإجابة عن السؤال، ثم سألناه السؤال التالي: أين كنت من الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشرة ليلة إطلاق النار على جامع صالح؟

"أنس" وكأنه كان ينتظر ذلك السؤال ليعيد ذكر ما جرى معه من أحداث في تلك الليلة:

ـ منذ اختفاء قرص الشمس خلف الجبل الذي يشرف على قريتنا من الغرب صانعًا حدًا طبيعيًا بين خضرة الوادي الخصيب والصحراء الواسعة التي ترقد خلفه بذئابها ومطاريدها وأساطيرها التي لا تنتهي، أقول منذ غربت شمس ذلك اليوم وأقبل ليله زاحفًا ببرودته وسكونه وأنا أشعر بقلق داخلي لم أعتده من قبل ولم أكن أعرف له سببًا

حتى إن أمي وأختي شيماء سألتاني ونحن نتناول العشاء عما يبدو على من ضيق فصارحتهما بأني أنا نفسي لا أعلم سببًا لذلك الشعور بالضيق، ثم أخبرتهما بأنه ربما الملل بدأ يتسرب إلى نفسي وأنا الذي اعتدت منذ سنوات أن يكون ليل القاهرة الصاخب هو مسرح صولاتي وجولاتي فما كان من أمي إلا أن اقترحت عليّ بأن أذهب إلى أبي الذي يروي غيط البرسيم ليلاً مؤثرًا تحمل البرد القارص على تحمل ما يحدث نهارًا بين الفلاحين الذين يتشاحنون على أولوية الري من المكنة الكبيرة التي تسحب من الترعة التي أصابها شح مؤخرًا فجعلت كل واحد منهم يحاول أن يسبق غيره كي يضمن الانتهاء قبل قدوم الليل، أما عبد الفتاح الجبالي فالليل أنيسه وإن كان ليل أمشير العاصف، وخرجت على الفور فقد كنت في حاجة إلى الخروج ولو لم تقترح عليّ أمي ذلك، تحاشيت لبس البنطلون والقميص وفضلت ارتداء الجلباب البلدي ربما لأقنع نفسي بأن "أنس" اليوم لا يختلف عن "أنس" قبل أن يغادر جريح الفؤاد إلى القاهرة، ولكن هيهات أن ينال الإنسان كل ما تصبو إليه نفسه.

وقطع تسلسل الأحداث الذي كان "أنس" منهمكًا في سرده صوت وكيل النيابة الذي كان يصغى إليه بكل حواسه وهو يقول:

ـ هل تقدر على تحديد الساعة كم كانت تقريبًا عندما غادرت بيت والدك؟

وأجاب: كانت حوالي التاسعة مساء.

وكيل النيابة بلهجة آمرة: أكمل.

واستطرد مكملاً سرد ما بدأه من أحداث تلك الليلة:

ـ خرجت من بيت أبي قاصدًا الغيط، ولكن شعورًا غريبًا

اجتاحني وأنا متسربل بالعباءة السوداء فجعلني أشعر وكأني أصبحت جزءًا من الليل الحالك الذي يلف الوجود حولي، ورأيت نفسي وأنا أغير من وجهتي وأتجه إلى مكان آخر إلى حيث المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالراحة النفسية أي إلى حيث تنتصب شجرة الجميز العتيقة بجوار غيط صبحي وصفي ، وتحت جزعها الحنون جلست، لا يؤنس وحدتي في ذلك السكون المطبق سوى مجمرة النار التي أشعلتها وأخذت أغذي لهبها بقطع خشب السنط ألقيها واحدة بعد أخرى، وعواء ذئاب قادم من جوف الصحراء التي تلي قريتنا من ناحية الغرب، وظللت على هذه الحال حتى اتصل بي أبي الذي كان قد عاد إلى البيت، وأخبرته أمي أني خرجت قاصدًا الذهاب إليه في الغيط، فأنبأها بأني لم آتيه هناك، وأخبرته أني سأعود للبيت، وفي تلك الأثناء سمعت صوت عيار ناري انطلق في الفضاء فلم أعره اهتمامًا لأني تعودت على سماع مثله في مثل تلك الليالي خاصة وقد أعقبه عواء ذئاب، فظننت أن العيار الناري كان لتخويفها ، وعدت بعدها مباشرة إلى المنزل، وأكملت السهرة مع أسرتي، ثم إلى غرفتي ونمت حتى إذا ما أشرقت شمس اليوم التالي وسرى خبر مقتل جامع صالح في ربوع السلامية والقرى المجاورة، سمعته مثلي مثل بقية الناس.

وكيل النيابة: عند سماعك صوت العيار الناري ألا تذكر أن أحدًا قد شاهدك أو كان بالقرب منك حينها ، وبشكل أوضح هل لديك وسيلة تستطيع بها أن تثبت أنك كنت بعيدًا عن مسرح الجريمة وقت حدوثها؟

كان سؤالاً منطقيًا يعلم "أنس" أن الإجابة عنه سيكون لها أثر كبير في تحديد مصير التحقيق معه وأجاب بنبرة يائسة:

ـ لا... فـي الحقيقـة أنا لم أرَ أحدًا ولا أتذكـر أني قابلت أي شخص في طريق عودتي للبيت.

وكيـل النيابة وهو ينظر إلى الكاتـب بعد هنيهة صمت خيّل إلى "أنس" أنها ساعات:

ـ أمرنا نحن أحمد مهدي وكيل نيابة قنا بحبس المتهم أنس محمود الجبالي خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق.

وهكذا انتهى التحقيق مع "أنس" وتم اقتياده إلى الحبس وقد ملأه شعور بأن قدميه تغوصان أكثر فأكثر في وحل تلك القضية.

***

٣

التحقيق مع «موَدّة»

كانت شاحبة الوجه عيناها العسليتان زائغتين لا تواجهه ولا تستقران على شيء في الغرفة، وتحت العينين بدت الهالات السوداء تنبئ عن ليلة خاصمها فيها النوم، وكان مظهرها في العموم يوحي بما وصلت إليه حالتها النفسية من قلق ويأس وإحباط، أما أحمد مهدي وكيل النيابة فقد كان مستويًا على مقعده استواءه المعهود يرمقها بنظره الذي يحاول أن يستكشف أغوارها وما تخفيه نفسها بينما هي تتوارى في خجلها تارة وفي خوفها من المصير الذي يمكن أن تلقاه تارة أخرى، وبدأ التحقيق بسؤاله التقليدي وأجابت بعد أن ثبتت عينيها في موضع تحت قدميها:

ـ اسمي "موَدّة" راشد الجبالي، عندي ٢٣ سنة، ربة منزل.

وكيل النيابة: "موَدّة" في الفترة ما بين الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشرة يوم 2 يناير قُتل زوجك جامع صالح على الطريق المؤدي للسلامية، أين كنت في ذلك الوقت؟

موَدّة وقد رفعت رأسها لتواجه عينيها عيني وكيل النيابة ربما لتبدو أكثر تماسكًا وقالت:

ـ كنت في البيت.

كان يتوقع تلك الإجابة، فمن ناحيته لم يكن احتمال أن تكون تلك الشابة القروية قد تسللت خارج منزلها في تلك الليلة الشتوية الباردة وهي تحمل سلاح ناري لتقتل زوجها في تلك المنطقة

النائية على مشارف القرية ثم تعود دون أن يلاحظها أحد ، احتمال قوي، ولكن إذا أرادت أن تتخلص منه وتستولي على المال الذي كان بحوزته أتراها تعجز، لا ، تلك كانت من بديهيات قناعاته القديمة التي عززتها الأيام والتجارب، فالمرأة إذا أقدمت على جريمة كانت في الغالب أشد حرصًا وأكثر تخطيطًا من الرجل، ومَوَدّة لو كان لها يد في جريمة القتل فإن الاحتمال الأرجح أن تكون هي من حركت وحرضت اليد التي ضغطت على الزناد وليس بالضرورة أن تكون يدها هي، لذا لم يتوقف كثيرًا أمام إجابتها وانتقل مباشرة إلى السؤال التالي:

ـ "أنس" الجبالي... هل تقدم لخطبتك قبل جامع صالح وأهلك رفضوه؟

مَوَدّة وقد شعرت بدقات قلبها تتسارع:

ـ نعم صحيح.

مستأنفًا أسئلته:

ـ وبعد رجوع "أنس" من القاهرة هل التقيت به، أو كان بينكم علاقة بأي شكل؟

"مَوَدّة" بغضب واضح:

ـ حضرتك أنا ليس لي أي علاقة بـ"أنس" وما تتهمني به لا يمكن أن يحدث، وأكملت قائلة:

ـ الأستاذ "أنس" له حياته وأنا كنت متزوجه ولي حياتي.

وكيل النيابة وقد رفع صوته محتدًا:

ـ أنت هنا متهمة عليك الرد على الأسئلة بوضوح ودون اعتراض.

س: كيف كان شكل علاقتك بجامع بعد رجوعه من الكويت وبشكل أوضح هل كان هناك أي مشكلات

بينكم أو أي توتر من ذلك الذي يمكن أن يحدث بين الأزواج، أو كانت هناك مشكلات بينه وبين أي شخص آخر يكون أعطاك فكرة عنه؟

هي وقد استحضر عقلها ما جرى بينها وبين جامع بعد عودته من عمله، وذلك السر الذي كان قد باح به لها فقلب كيانها وكان فاصلاً فيما أعقبه من أحداث، ولكنها كانت تدرك بفطرتها أن إخبارها وكيل النيابة بالأمر يُصعب من موقفها في القضية ويزيد الشكوك حول ضلوعها في الجريمة لذا أجابت وقد أكسبت صوتها نبرة الثقة المصطنعة:

ـ لا... لم يكن بيننا خلافات وكانت حياتنا طبيعية...

وأردفت بعد صمت قصير ربما لتعزز موقفها:

ـ وأظن أن سيادتك ربما تعلم أنه باع أملاكه في الشيخ موسى وكان ينوي أن نقيم معًا في السلامية، أما بالنسبة لخلافاته مع أناس آخرين فجامع كان إنسانًا هادئ الطباع ولم أره قبل ذلك في خصام أو خلاف مع أحد، إلا...

ثم أردفت وكأنها تلقي إليه ببذرة شك تتمنى أن تنمو وتزدهر في عقله:

ـ عمه غالب أعرف أنه كان له خلاف قديم معه حول إرث قديم وأشياء من هذا القبيل ليس لي علم بتفاصيلها.

وكيل النيابة مدركًا ما تحاول أن ترمي إليه "موَدّة" ومحولاً دفة الاستجواب إلى اتجاه آخر:

ـ "مودة"... زواجك من جامع دام سبع سنوات، لم تنجبي خلالها، تُرى هل كان هناك مشكلة طبية عندك أو عنده أم هناك أسباب أخرى؟

أصاب سؤال المحقق الجرح الغائر في قلبها وجعلها تفقد ما اكتسبته في الدقائق السابقة من ثقة وتوازن، وفكرت مرة أخرى، ماذا عليها أن تقول، أتقول الحقيقة، أم تستمر في كذبها للنهاية، خاصة إذا كانت الحقيقة ربما تزيد الشكوك حولها، وحسمت أمرها وقررت أن تختار الحل الثاني:

ـ جامع لم يكن عنده ما يمنعه من الإنجاب ولا أنا أيضًا.

وكيل النيابة وقد أدرك أنه أمسك بثغرة يستطيع من خلالها أن يضيق الخناق عليها علها تنطق وتعترف بصلتها بالجريمة أو على الأقل تفتح بابًا يساعد في حل لغز تلك القضية:

ـ "مَوَدّة" أنت تكذبي والكذب لن يفيدك.

لم ينطق لسانها بكلمة، ولكن عينيها كانت تصرخ متسائلة، كيف عرفتم ما أحاول جاهدة إخفاءه.

وأكمل كلامه وكأنه وعى رسالة عينيها وأدركها:

ـ الشرطة عثرت على تقارير طبية مخبأة في غرفة نومك في منزل أبيك تفيد بوجود أمراض لدى القتيل جامع صالح تعيقه عن الإنجاب مما يعني علمك المسبق بذلك.

كانت كلمات وكيل النيابة تخرج قوية حادة بينما "مَوَدّة" قد تصلبت ملامح وجهها فلم تعد تنبئ بطبيعة الشعور الذي يعتمل في مكنون صدرها، وتكلمت "مَوَدّة" بصوت بدا وكأنه يخرج من بئر عميقة وقد أدركت أن ما كانت تحاول إخفاءه هو معلوم سلفًا للنيابة فقررت أن تسرد حقيقة تلك التقارير وما دار بينها وبين جامع قبل أن يلقى مصرعه:

ـ نعم علمت لكن متأخرًا، تحديدًا بعد سنوات كنت أتمنى خلالها أن أنجب وأصبح أمًا، وقمت بالفحص الطبي أكثر من مرة وفي كل مرة يؤكد لي الأطباء أنه ليس عندي موانع

للحمـل، وطلبـوا أن يطلعوا على تحاليـل وفحوصات جامع لكن هو رفض وقال لي إنه سليم من ناحية الإنجاب وطلب مني الصبر، وصبـرت، حتى فوجئت به يصارحني بمرضه وقال إن هناك أملاً في علاج حالته، وأنه قرر أن يترك عمله في الكويت ويظل معي هنا.

مقاطعًا: هنا هذه تعني السلامية أم الشيخ موسى؟

مودّة مجيبـة: السـلامية وهـذا كان طلبـي وقد وافـق عليه، وحضرتك تعلم أنه باع أملاكه في الشـيخ موسى وكان عندما قُتل في طريقه إلى السلامية، أعني أنه لو لم يكن لي رغبة في العيش معه وطلبت منه الطلاق بعدما صارحني بحقيقة مرضه ما لامني أحد.

ـ تريديـن أن تقولي إنه كان بإمكانك الانفصال عن زوجك جامع بسهولة ولا تحتاجي إلى التخلص منه بالقتل.

مسرعة وقد تمنت أن يكون قد اقتنع بكلامها:

ـ نعم هذا ما أقصده بالضبط.

وكيل النيابة وقد استمع إلى "مودّة" وبجواره الكاتب دوّن ما قالته بدقة:

ـ لكن ما قلتيه ليس دليلاً كافيًا على براءتك لأنه على فرض أنه كان مستعدًا لتطليقك إن أردت، وهذا شيء لا نستطيع التأكد منه، فإنك كنت سوف تخسرين ماديًا عند وفاته وأنـت علـى ذمته، كما أنـك كنت تعلميـن موعد رجوعه على الطريق لأنه حسـب أقوالك السـابقة أجرى اتصالاً بك وأخبرك بأنه لن يبيت في الشـيخ موسـى وسيعود للسلامية وبحوزته حصيلة بيعه لبعض أملاكه.

بلهجة استعطاف:

ـ صدقني أنا بريئة وليس لي أي علاقة بالجريمة.

وكيل النيابة ناظرًا إلى الكاتب وقد أيقن أن شكوكه في أن القضية تزداد تعقيدًا يتعزز شيئًا فشيئًا:

ـ أمرنا نحن أحمد مهدي وكيل النائب العام بحبس المتهمة "مَوَدّة" راشد الجبالي خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيقات.

***

٤

التحقيق مع غالب

هـو رجل في أواخـر العقد الخامس من عمره، أبيض البشـرة بنيتـه القوية بالقياس إلى سـنه وشـواربه الكثيفـة تعطي لوجهه شكلاً مميزًا.

أحمـد مهدي وكيل النيابة بادئًا بسـؤاله التقليدي الذي يبدأ به التحقيق عادة:

ـ اسمك؟ وسنك؟ ومهنتك؟

بلهجة خالية من التوتر:

ـ غالب همام حسن... عندي ٥٧ سنة، ومهنتي مزارع.

ـ أنـت متهم بقتل جامع صالح والاسـتيلاء علـى الأموال التي كانت في حوزته.

بصوت جهور ملأ الاستنكار نبراته:

ـ أنا أقتل ابن أخي الوحيد لأجل المال... هذا لا يمكن يحدث أو حتى يخطر في ذهني.

وكيل النيابـة: ما هي أقوالـك حول وجود خلافات بينك وبين ابن أخيك حول إرث قديم تطورت في بعض الأحيان إلى مشادات سمعها وشاهدها الجيران؟

غالب: نعم كان هناك خلاف، لكن أي خلاف مهما كان، ما كان ليوصلني لقتل ابن أخي...

واستطرد محاولاً تعزيز دفاعه:

ـ موضوع الخلاف هذا موضوع قديم وانتهى.

وكيل النيابة: متى كانت آخر مرة رأيت فيها الضحية؟

غالب مستعيدًا ذكرى ذلك اليوم الذي أقبل عليه فيه جامع ليلقي على مسامعه ذلك الخبر الذي زلزل كيانه، وكان سببًا في حدوث مشادة بينهما، يجب ألا يعلم وكيل النيابة عنها شيء:

ـ عصر اليوم الذي قُتل فيه.

وكيل النيابة: أين؟

غالب: في بيتي، أتى يومها يزورني.

وكيل النيابة: هل كان لجامع أي خلافات مع أي أحد في القرية؟

غالب: ابن أخي كان محبوبًا من الناس كلها...

واستطرد قائلاً:

ـ لكن زوجته اللّه أعلم بها، كانت تكرهه وتكرهنا، وأنا نصحته كثيرًا أن يطلقها ويتزوج من تنجب له ذرية، لكنه كان متمسكًا بها ورافض الاستغناء عنها.

وكيل النيابة بوجه مستريب وقد أدرك ما يلمح به غالب:

ـ تريد أن تقول إن "مودّة" راشد هي الضالعة في قتل جامع.

غالب وقد اطمئن أن المحقق قد التقط منه الخيط:

ـ ولمَ لا؟

أحمد مهدي وقد ارتفع صوته وأصبح أكثر حدة:

ـ غالب أنت تحاول بذكاء أن تبعد التهمة عنك، لكنك تعلم أن المجني عليه كان يمتلك أراضي زراعية في القرية وأنت كنت مستأجرها، وقام المجني عليه ببيع تلك الأراضي قبل مقتله مباشرة، وطبعًا ذلك سبب لك ضررًا كبيرًا.

غالب نافيًا:

ـ ولماذا يسبب لي ضررًا كبيرًا أو صغيرًا، هذه أرضه وهو حر فيها...

قالها بلسانه، بينما كان عقله يتذكر كيف تلقى ذلك الخبر، وما كان يعتمل في صدره من غضب وحنق حينها.

وكيل النيابة: أين كنت مساء يوم الاثنين، تحديدًا من الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشر؟

غالب محاولاً نسيان ما جرى ليلتها، ومركزًا تفكيره في إعطاء إجابة مقنعة:

ـ كنت أروي غيط البرسيم، قبلي البلد.

وكيل النيابة وقد تذكر أن "أنس" قال أيضًا أنه كان في تلك الليلة في طريقه لري الغيط مع أبيه فقال بلهجة امتزج فيها الاندهاش بالسخرية:

ـ يبدو أن تلك الليلة كان المتهمون جميعًا منهمكين في ري الزروع...

ثم ثبت عينيه في عيني غالب، قبل أن يقف لأول مرة منذ بدء التحقيق، وترك مقعده ليدور حول غالب ثم يتوقف أمامه ويقول:

ـ تقول إنك تقبّلت قيام ابن أخيك ببيع الأرض ولكن المعلومات التي وصلتنا هي أن مشادة جرت بينك وبين جامع خرج بعدها من عندك غاضبًا؟

غالب وقد أدرك حرج موقفه فتبدلت سمات وجهه المطمئنة إلى أخرى غلب عليها القلق والتوتر:

ـ من أخبرك بذلك كاذب.

وكيل النيابة وقد شعر أن الفريسة قد بدأت قواها تخور وعما

قريب ستستسلم بين يديه:

ـ لقد استجوبنا ابنتك وعلمنا أنك كنت مستاء من ذهاب ابن أخيك للعيش في السلامية.

بصوت متلعثم منخفض كأنما يخرج من بئر عميقة:

ـ نعم ولكن هذا لا يعني أني أقتل ابن أخي.

وكيل النيابة وقد عاد للجلوس خلف مكتبه:

ـ يعني أنت مصر على الإنكار؟

غالب بكلمات خرجت حاسمة وقاطعة:

ـ لقد قلت ما عندي.

وكيل النيابة بعد صمت قصير وإدراك بأن شعوره باقتراب اعتراف غالب لم يكن صادقًا وقد أيقن أن القضية تزداد صعوبة كلما أبحر فيها أكثر، وبصوت كستة الصرامة:

ـ قررنا نحن أحمد مهدي وكيل النائب العام حبس غالب همام خمسة عشر يومًا على ذمة القضية.

***

٥

بدء التدوين

حين دوى صوت العيار الناري في ذلك المساء وتبعه عواء الذئاب الذي انطلق في الفضاء أشبه بالصراخ والأنين، لم ألق له بالاً ولم أعره اهتمامًا فقد تعودنا سماع صوت الأعيرة النارية في تلك الليالي الباردة من شهر أمشير؛ يطلقها المزارعون لإخافة الذئاب واللصوص، وأحيانًا لقطع الصمت وجلب الونس، وكيف لي حينها أن أعلم أن تلك الرصاصة القاتلة سوف تكون سببًا في جلبي إلى تلك الغرفة البائسة حيث الرائحة العطنة تزكم أنفي والرطوبة القاتلة تكاد تنفذ إلى عظام جسدي النحيل وشخير السجناء يرتفع متناغمًا وكأنما يعزفونها سيمفونية خالدة تتناسب وجو المكان، أما أنا فمكوم في ركن قصي ضيق يجافي عيني النوم وتحيرني الأسئلة المعلقة في فضاء حياتي الماضية وترهق عقلي مخاوفي من مصيري الغامض في الأيام المقبلة، ترى هل تظهر الحقيقة ويطلق سراحي أم تتوه وتطمس وأظل دهرًا متسربلاً في أغلالي...

وتداعت إلى ذاكرتي فورًا قصة ليوسف إدريس جاء فيها:

(إن الانتظار في السجن ليس مؤلمًا، إنه عمل، عمل طويل لا ينقطع ولا ينتهي، يتسلمه المسجون لحظة أن يضع أقدامه في العنبر، إذ عليه لحظتها ولو كان الحكم مؤبدًا، أن ينتظر الإفراج وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجينًا وساعة خروجه حرًا طليقًا أن ينتظر الليل إذا جاء النهار وينتظر الغروب حين تشرق الشمس وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الإفطار،

انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الإنسان بلا ملل وإنما باستسلام تام وخضوع مطلق له)...

يا الله هل يكون هذا مصيري وأنا البريء من دم ابن صالح، ولكن ألم يقل المثل ياما في السجن مظاليم، ألا يجوز أن أنضم إلى قافلة المظاليم وأقبع لسنين طويلة أنتظر اليوم الذي أنال فيه حريتي، وزلزل كياني ذلك الخاطر وانتصبت واقفًا أدور داخل الغرفة كأسد جريح يتأسف على أمجاده الغابرة، حتى أبصرت تلك البقعة من النور الفضي وقد هربت من القمر في الأعالي وتسللت عبر النافذة أعلى الجدار القاتم واستقرت فوق السرير ذي الدورين المحشور في الركن الضيق والذي كنت أجلس عليه منذ قليل فأوحت لي بسبيل للمقاومة...

فلست أنا الذي يرضى بأن يكون مصيره الانتظار وفقط بل يمكنني أن أقاوم بالكتابة، لقد كتبت في السابق قصصًا وروايات ناجحة ولكنها كانت جميعًا من وحي الخيال أما الآن وبمساعدة ذلك الشعاع الهزيل أستطيع أن أمسك بالقلم وأجتر عبر مداده ما كان من أمري في شكل رواية جديدة ليست من وحي الخيال هذه المرة بل من قلب الواقع الذي عايشته وأوصلني إلى هذا المكان ولعلي أتطهر بكتابة ما كان وما سيجد في صورة عمل أدبي...

ولكن يا ترى من أي زمن يمكن أن أبدأ قصتي أيكون الصبا حيث شهدت ما كان من أمر الصراع بين عائلتي (الجبالي) وعائلة "مودّة" (المكي) أم من اليوم الذي تعلق فيه قلبي بمودّة بنت راشد أبو مكي وتقدمت لطلب يدها بعد أن تحدثت الألسنة بقصة حبي لها، وبدلاً من أن يوافقوا على إسعاد قلبينا تم رفضي، ودفعني والدي لإبعادي إلى القاهرة لأكون بعيدًا عن لهب الألسنة التي

لا ترحم، أم يا ترى أبدأ بثورة يناير التي شاركت فيها بوجداني وقلمي حتى إذا ما هبت عواصف الأحداث عدت إلى السلامية معتقدًا أني ابتعدت عن مكمن الأخطار ولكن للعجب ها أنا ذا محاصر بين تلك القضبان التي كنت أخشاها وإذن فلتكن البداية يوم عودتي فلولا العودة ما كنت أنا هنا بين تلك الجدران ولولا العودة ربما لكانت عائلتي ما زالت تنعم بالسلام والطمأنينة ومعها السلامية كلها.

***

٦

العودة

الخميس 25 ديسمبر ٢٠١٦

اليـوم وجـد نفسـه عائدًا بعـد غيـاب دام سـنين، هكذا بلا مقدمات وعلى عجل، تراوده مشـاعر متضاربة، وذكريات تلقي بظلالهـا عليه فتكون مـع هواء كيهك البارد الـذي كان يلفح السـيارة من كل اتجاه ترنيمة لحن حزيـن ظن يومًا أنه محاه من الذاكرة أو أخفاه في مكان سحيق...

ها هو ذا على وشـك الوصول إلى قريته بعد رحلة سـفر طويلة قطعتها السيارة من القاهرة إلى محافظة قنا بالصعيد الأعلى وهنا برز سـؤال من بين السحاب المتراكم على القلب، ترى أيمكن أن تكون عودته تشـبه عودة طارق، أم أيمكن أن تكون محنته تشـبه المحنة الأليمة التي مرَّ بها طارق في السـابق، وعلى الفور ثارت رياح الرفض بداخله حاملة ما تراه مبررات كافية...

قال لنفسه:

ـ حين عاد طارق بعد سنين الهروب والضياع كانت عودته من أجل الثأر والانتقام أما أنا فلم أحمل في يدي يومًا إلا رايات السلام، ثم إنه عاد متخفيًا بينما أنا أعود اليوم جهارًا نهارًا غيـر خائف ولا هياب متحديًـا كل ذكرى مؤلمة مرت بي في أواخر عهدي بالقرية لأزور أسـرتي التي اشـتقت إليها، أو على الأقل هكذا أخبرتهم قبيل مجيئي.

السيارة الآن على وشك الوصول إلى المدخل الجنوبي للقرية،

وهو نفس الطريق الذي خرج منه قبل سنوات حاملاً أمتعته وآماله وآلامه وقد ظهر على البعد حسنين ممسكًا في يده هاتف محمول يبدو أنه كان على وشك الاتصال بأنس ليعرف كم يتبقى له من الوقت للوصول للقرية، حينها ندت عن "أنس" ابتسامة وتمتم في نفسه ساخرًا من تلك الأيام التي لم يكن في طول السلامية وعرضها سوى تليفونين أحدهما التليفون الميري عند خاله العمدة أبو شادوف والثاني في بيت أبيه عبد الفتاح الجبالي.

نزل "أنس" من السيارة فاستقبله بالأحضان حسنين ابن عمه وزوج أخته فتحية ذلك الرجل الذي لم يغادر قريته إلا إلى المدينة القريبة وفي الغالب ليسوق منتجات أرضه التي يزرعها فهو تربي من خير الأرض التي ورثها عن أبيه عبد الواحد الجبالي فنشأ مثل تلك الأرض مليء بالخير على سجيته، ورغم بساطة تعليمه الذي لم يجاوز المرحلة الإعدادية إلا أنه وكما كان يردد أناس كثيرون، ينطق أحيانًا بحكم تجعلك تشعر أنك أمام فيلسوف بالفطرة، لذا لم يكن غريبًا أن لا يمانع عبد الفتاح أو "أنس" من تزويجه لأخت "أنس" الكبرى فتحية تلك العنيدة التي تشبه أبيها.

ركبا السيارة معًا متجهين إلى بيت عبد الفتاح الجبالي، كان المنزل مكونًا من طابقين من الطوب اللبن يطل على ساحة واسعة تحيطها عدة منازل ويشرف عليها من جهتها البحرية مسجد القرية وقد زينت واجهة البيت برسومات بسيطة لطائرة وسفينة وكعبة يطوف الحجاج حولها وتعلوها عبارات التهنئة والدعاء بالحج المبرور والذنب المغفور، الطلاء يبدو جديدًا رغم أن عبد الفتاح الجبالي وزوجته سنية أبو شادوف قد أديا فريضة الحج منذ ما يزيد عن عشرة أعوام ولكن يبدو أن عبد الفتاح حين أعاد طلاء المنزل منذ شهور كان حريصًا على أن تعاد الرسومات والعبارات كما كانت في السابق، المنزل في الواجهة له بابان، الباب الرئيسي

ذو الضلفتين الخشبيتين المزينتين برسومات هندسية بسيطة حافظت على رونقها كل تلك السنين وباب آخر جانبي يُفضي إلى الحوش حيث فرن الخبز الشمسي ومبيت البهائم والطيور وقد كان مفتوحًا ولمح "أنس" من خلاله أطلال الفرن وبضع دجاجات تجري هنا وهناك، دلفا إلى الصالة الواسعة التي تقابل الداخل وتسمى (السقيفة) كان على وشك أن يسأل حسنين عن سبب تحطم الفرن التي طالما أكل منها ألذ خبز من يد أمه وأختيه ولكن لسبب لا يدريه لم يسأله ولم يسأل أحد غيره فقد أبصر الإجابة بنفسه وهو يتناول طعام العشاء.

كانت العائلة في انتظارهما ومشاعر الفرح تعبق المكان بينما ريشة الزمن قد رسمت علي الوجوه ملامح غير تلك الملامح التي كانت تزينها قبل سبع سنوات، كما لم يكن "أنس" اليوم مثل "أنس" الذي غادر السلامية كسير القلب مجروح الفؤاد، وحامت في رأسه الذكريات فنفضها سريعًا، وأقبل عليهم باش الوجه فبادرته أمه سنية بالأحضان الطويلة المصحوبة بدموع الاشتياق وتبعتها أخته فتحية فشيماء ثم أبيه الذي أفسح له ليجلس بجواره، كانت الليلة الأولى مليئة بالشجون، أخته الصغرى شيماء أول من لفتت نظره، تلك البيضاء التي تميل إلى القصر مثل أمها سنية، هو يراها الأن أكثر إشراقًا، ترى كيف كانت تسير حياتها في سنوات غيابه تلك، هل طرق طارق الحب باب قلبها وهي التي كانت رسوله المؤتمن إلى مودة، كم كانت تفيض نورًا وتلمع عيناها بألق ساحر كلما ألقي بين يديها بقصيدة شعر لتلقيها بين يدي "مودّة" صديقتها وحبيبة القلب التي جعل من أشعاره رسائل تحمل ما اعتمل في قلبه منذ أبصرها في ذلك اليوم البعيد صدفة، ولكن أي حب ذلك الذي من الممكن أن يختلج في نفس شيماء وأرقه ذلك السؤال الذي إن مر بعقل عبد الفتاح الجالس بجواره

لاعتبر ذلك السؤال في حد ذاته جريمة، وكيف لا وذلك النحيف الأسمر هو من أصر على أن يغادر "أنس" السلامية إلى القاهرة حتى لا يحتدم الصدام بين الجبالية والمكية بسببه ومودة، بعد أن كان في سنوات سابقة لأسباب أخرى، وأرادت شيماء أن تقطع حبال الصمت المشحون بالمشاعر فقالت مداعبة:

ـ تبدو يا "أنس" في البدلة وكأنك مولود في القاهرة ولست طوال عمرك مزروع في السلامية.

فقال ونظرة الأسي ما زالت تسكن عينيه وقسمات وجهه:

ـ يا شيماء الأزياء لا تغير الناس، ولكن النفوس هي التي تتغير، وعلى العموم زرعة أخوك جذورها في السلامية حتى لو نقلوها رغمًا عنها وألقوا بها في القاهرة.

لم تستأنف شيماء حديثها، فقط صمتت وصمت الجميع وكأنهم لا يدرون ما هو الرد المناسب على ذلك الذي ما فتئ ينبش فيما كان ويلمح بأن خروجه من القرية كان إجبارًا لا يد له فيه، وأدرك "أنس" حرجهم وأن كلماته كانت جافة تناقض ذلك الجو الذي حاول أن يشيعه أفراد أسرته منذ وصوله، فاستطرد بعد أن ألان قسمات وجهه، ونقل حديثه إلى أبيه:

ـ شيماء كبرت يا أبو أنس، سبع سنوات تفعل كل ذلك.

بلهجة أقرب إلى التهكم:

ـ سبع سنوات ترى كم حاكم أطيح به وكم حكومة تبدلت...

واستطرد:

ـ البلد كلها تغيرت وأنت أولهم أصبحت كاتب تستضاف في القنوات ويراك ملايين الناس بعد ما كنت بيننا لا يدري

بك سوى أهل السلامية.

ضحك "أنس" لأول مرة منذ عودته إلى القرية، ربما لأن إطراء أبيه أسعده أكثر بكثير من تلك الإطراءات التي ترددت على مسامعه في القاهرة وآمن حينها أن قمة السعادة أن يعود المرء بانتصاره إلى أرضه الأولى وأحبابه الأول، وردد صوت داخله، ترى هل كانت "مَوَدّة" تشاهدني وتسمع ما يقال عني وأنا الذي غادرت السلامية كسير النفس جريح الفؤاد، ثم سرعان ما أبعد تلك الخواطر عن ذهنه وخاطب أبيه وقد ملأت وجهه تعابير الدعابة وقال:

ـ أصبت يا أبو "أنس" ما حدث في السنوات الماضية سوف يدرس لعشرات السنين القادمة، كان "أنس" يتحدث وقد ازدحمت في مخيلته صور ميدان التحرير وقد اكتظ بالثوار من كل الاتجاهات والرؤى وأيضًا النوايا وهذا ما أدركه متأخرًا، وهم أن يفيض بما تحبسه نفسه من آراء وذكريات هرب بها من العاصمة بعد أن ضاقت هناك العقول والقلوب عن أي رأي مخالف، ولكنه تراجع حين تذكر أن لقاءه بأسرته لا يحتمل الكلام في مثل تلك الأمور التي لا تعنيهم في السلامية البعيدة عما يحدث في العاصمة، هذا كان ظنه الذي سوف يضحك ملء قلبه حين يتذكره في قادم الأيام، وحين صمت عما همَّ أن يقوله سمع أمه تقول وكأنها تلقي إليه بطرف خيط لتصل به إلى مبتغاها:

ـ ما عهدت قلبك هكذا قاسيًا يا "أنس" سنين لا تأتي لرؤية أمك ولو لمرة واحدة، ولكن لا بأس فلن أتركك تعود للقاهرة إلا وفي يدك الزوجة التي تربطك بأهلك وقريتك.

وعاد ذلك الساكن داخله ليردد:

ـ هـذا إذن هـذا ما كنـت تمهدي له يا أم أنس، أنسـيت إذن مـا أخرجني مـن القرية وما حال دون عودتي إليها لسـنين، وتغير وجه "أنس" رغمًا عنه ليرتد إلى الحالة التي أقبل بها، وقال دون أن يدري أنه يضرب بفأس حادة جزع شجرة رقيق:

ـ أمي أرجوك اتركي هذا الأمر الآن لأني لا أفكر في الزواج في الوقت الحاضر.

وساد الصمت بعد كلماته تلك فقد أيقن الجميع أن السنوات الماضية لم تنسـيه "مودّة" ولم تخلعها من قلبه، وسـالت من عيني أمه دمعة سـرعان ما أزالـت آثارها الجارية على وجنتيها، ولتضع وجهًا بشوشًا كاذبًا وهي تقول:

ـ كما تشـاء يا "أنس" ولكن يبدو أنك سوف تأتي بالعروس من القاهرة... وبضحكة مصطنعة أكملت:

ـ ولكن عليك أن تخبرنا قبل أن تفعلها...

ولم يرد "أنس" عليها فقد رفع أبيه عنه الحرج فقال بشيء من الحدة؛ ربما لينهي الحديث في ذلك الموضوع:

ـ يـا سـنية ليس هذا الـكلام وقته الآن، قومـي أنت وبناتك جهـزوا لنا الطعام ابنك قادم من سـفر، وأيضًا حتى يذهب يستريح من تعب الرحلة الطويلة بالسيارة...

واستجابت سنية وبنتيها فتحية وشيماء، بينما ظل "أنس" وأبيه وزوج أخته يتسامرون حول أحوال البلاد والعباد إلى أن نودي عليهم إلـى الطعـام فقاموا إليه، حتـى إذا ما انتهوا من الطعام اسـتأذن حسـنين وزوجته في الانصراف إلى بيتهما وتبعهما "أنس" وشيماء كلٌّ إلى غرفته وبقي عبد الفتاح وسـنية. ينظر كلٌّ منهم للآخر نظـرات تعلوهـا الحيـرة حتى أشـار لها عبـد الفتـاح ليذهبا إلى غرفتهمـا ليقلبا الأمر الذي وصل إليـه ولدهما، وفي الغرفة التي

شهدت ذكريات بين سنية وعبد الفتاح بادرت سنية بعد أن تخففت من بعض ملابسها بينما كان عبد الفتاح يخلع عمامته وجلبابه:

ـ ابنك لم يزل قلبه لم يخلُ من بنت راشد.

عبد الفتاح وهو يطلق تنهيدة أسف:

ـ سوف يخلو ويجد من تملأ قلبه وتذكري جيدًا أنه يعلم أن مجرد التفكير في بنت راشد الآن ليس من حقه.

سنية بنبرة لوم وعتاب، ووجه كسته الملامح الحادة، وإلى متى نصبر، وقد ظل في القاهرة سبع سنوات لم تنجح واحدة في أسر قلبه.

عبد الفتاح بلهجة ملئها التبرم والضيق:

ـ يا سنية لا تخافي على "أنس" ولا تستعجلي فغدا ترين أولاده ويكبرون أمامك بل وتزوجينهم أيضًا.

قال جملته الأخيرة وهو يدفن رأسه تحت الغطاء لينبئها بوضع نهاية إجبارية لذلك الحوار، أما هي فقد نظرت ناحيته وقالت وهي تطلق تنهيدة عميقة:

ـ أزوج أولاده، قل فقط أشبع عيني برؤيته وهو عريس أولاً...

ثم ذهبت لتتمدد بجواره مستسلمة لأحلام اليقظة، قبل أن يهيمن على جوارحها سلطان النوم.

***

٧

الأصدقاء

الوقت ضحى يفترض أن أهل القرية قد انتشروا في مزارعهم من قبل طلوع الشمس، ولكن الحقيقة غير ذلك، هذا ما اكتشفه "أنس" بعد خروجه من دار أبيه ليتفاجأ بالناس تحييه في الشوارع والطرقات وهم ساحبين ماشيتهم خلفهم وقد تكاسلت أرجلهم وكأنهم يرغبون في العودة إلى بيوتهم ليكملوا نومهم بعد سهرات تطول أمام الفضائيات، وبدأت تكتمل في ذهنه الصورة التي بدأت تتشكل بالأمس عندما تناول طعام العشاء ولم يجد الخبز الشمسي الذي ألفه في بيته ووجد بدلاً منه خبز صنع في مخبز آلي فتح في القرية قبل عامين، حينها علم سبب هلاك فرنهم المنزلية التي شاهد أطلالها وهو يهم بدخول المنزل...

وفي هذا الصباح أدرك أن سلامية اليوم ليست هي سلامية الماضي القريب وأن الأحوال يبدو أنها تغيرت أكثر مما كان يتوقع خلال السنوات التي قضاها في القاهرة، وقد كان نوى منذ أمس أن يتجول بين بيوت أصدقائه القدامى لا أن يدعوهم إليه، ذلك أنه في الحقيقة يرغب بشده في أن يعرف ما آلت إليه قريته وأهلها بعد كل تلك الأحداث التي جرت في مصر كلها وانعكست على تفكير الناس ونظرتهم للماضي والحاضر والمستقبل...

هذا ما كان يدور في عقله في الليلة السابقة، وإن اختلط بتلك الفكرة هاجس خبيث وسوس في أذنيه بأنه إنما يريد أن يلقي صاحبته هناك في معاقلهم ليشهد بعينيه رايات انتصاره وهي

تخفق على دورهم حين يبصرون الأديب الكبير يدخل عليهم، وقد شهدت تلك الدور كاسات الألم والانكسار وهو يتجرعها قبل سبع سنوات، ذلك ما نوى عليه أمس وهَمَّ بتنفيذه اليوم ، ولكن شاء القدر أن يكون لقاؤه بأصدقائه ليس في دورهم ولا في داره، بل في مكان آخر حيث الهواء الطلق والشمس الساطعة التي لم يحجبهم عن أشعتها سوى ظل شجرة الجميز العتيقة...

وكان الذي حدث وتسبب في تغيير وجه "أنس" هو أنه بينما كان متجهًا إلى بيت طارق ابن عمه ليبدأ به جولته فوجئ بصديقه القديم صبحي وصفي يقطع عليه الطريق ويأخذه بالأحضان، وصبحي هذا رفيق دراسة "أنس" من الابتدائية إلى الجامعة، وإن كان صبحي قد درس الزراعة بينما "أنس" التحق بكلية الآداب، أما هيئته فهو أبيض البشرة يميل إلى الحمرة مع صلعة تحتل مقدمة رأسه وجسده ممتلئ يميل إلى القصر، وبطن بدأت يبرز منها كرش يبدو أنها ستنمو مع الأيام وهو أيضًا ابن العائلة المسيحية الوحيدة في القرية، وترتيبه الأصغر بين أبناء وصفي جرجس الثلاثة وهو الوحيد الذي ظل منهم في القرية ليرعى تلك الأفدنة الخمسة التي ورثها عن أبيه مع إخوته الذين فضلوا العمل بالتجارة في المدينة، ورفض هو باعتباره مهندسًا زراعيًا... الأرض مهنته وحياته لذا أبى أن يغادر مثلهم...

وحين قابل "أنس" ذلك الصباح تدفقت ينابيع الذكريات وفاضت، فكان مجرد تذكير صبحي لأنس بموقف أو دعابة من تلك الدعابات التي مرت بهما في فترات دراساتهما المشتركة، كافية بأن ترتفع ضحكاتهما على أثرها حتى تختلط بتلك الأصوات التي احتشدت في الطريق من أصوات الدواب والجرارات الزراعية المتجه إلى الحقول الزراعية حول القرية.

صبحـي وقد أمسـك يده بيد "أنس" وأبـت أن تتركها وبلهجة باسمة تعود أن يتكلم بها:

ـ والله زمان يا كاتب وحشتنا ووحشتنا أيامك.

"أنس" وقد تنقلت عيناه بشكل تلقائي بين صبحي والعابرين في الطريق ثم قال:

ـ وأنت أيضًا كيف هي أخبارك وأخبارك الصحبة القديمة؟

صبحي وهو يشير إلى نفسه:

ـ أنا مثل ما ترى... وأشار إلى جسده.

"أنس" وقد وجدها فرصة للدعابة، وقد أشار بيده إلى بطن صبحي:

ـ أرى شيئًا أشبه بمن يكن في الرابع أو الخامس.

صبحي: واضـح أن شـهيتك اليـوم مفتوحة للسـخرية يا أنس، على العموم ليس عندي مانع لكن شرط أن تأتي معي للغيط، ونقعد تحت شـجرة الجميز الأصيلة، وتتحفنا يا سيدي بسخريتك.

"أنس" مبديًا بعض التردد:

ـ لكن أنا كنت ذاهب لزيارة طارق الجبالي في منزله.

صبحي... مصرًا:

ـ ليس هناك مشكلة فلنتصل به على الهاتف يأتينا في الحقل، وسوف أهاتف أيضًا صادق البهجوري ليلحق بنا هناك...

وأعقب بقوله: ها أنا ذا لم أحرمك من شيء، ما رأيك الآن.

وهكذا كانت شـجرة الجميز التي يسميها "أنس" وأصدقاؤه بالأصيلـة لأنهـم منذ ولدوا وهـم يأتون عندها للعـب واللهو عندما كانوا أطفالاً، ثم السمر والحديث عندما طرقوا أبواب الشباب، كما أن لها اسمًا آخر هو الشاهدة حيث شهدت ولادة أولى قصائده

فـي وصف "مـوَدّة" حين وصف حبيبته التي لم يسـمها حينها بأنها راسخة في قلبه رسوخ جذور الجميز الأصيلة في الأرض الطيبة...

وفي البقعة التي خلت من ضوء الشـمس بفعل تشابك أغصان شـجرة الجميز، تحلق الأصدقاء الثلاثـة "أنس" وصبحي وصادق حـول مجمرة النار التي كانت في ماضيها قصعة أسـمنت تقادم بها الزمن فتحولت إلى إناء يضع فيه صبحي خشـب السنط الذي سيتحول بعد إشتعاله إلى مصدر للتدفئة والونس في ليالي الشتاء الطويلـة، يشـاركه ذلك الونس في الغالـب صديقه صادق الذي ما سمع عبر الهاتف نبأ تواجد "أنس" بصحبة صبحي عند شجرة الجميـز حتى أقبـل مهرولاً باشًـا... فاسـتقبله "أنـس" بالأحضان الطويلـة، وبتلـك الضربات الخفيفـة التي تصحبهـا على الأظهر والأكتاف وقد غاب عنهم طارق الجبالي الذي اعتذر عن الحضور ووعد بزيارة "أنس" في منزله...

كان صادق طويل القامة عريض الكتفين خمري البشرة يشبه أولئك النجوم الذين يختارون بعناية ليكونوا أبطال السينما الهندية...

أما "أنس" فقد كان أسمر البشرة يميل إلى الطول مع نحافة واضحة لكنها لم تمنع تلك الوسامة البادية على ملامحه، فكان احتضانه لصادق أشـبه باحتضان مياه البحر الواسـع لمياه النيل القادمة بعد رحلة سفر مجهده من المنابع البعيدة...

وحيـن جلسـوا متحلقيـن حـول النار المشـتعلة بـادر صبحي بتلقائيته المعهودة قائلاً: مجمعين عند النبي، أحدثت تلك الجملة غير المتوقعة حالة من الضحك أصابت "أنس" وصادق حتى كادا ينكفئان على ظهريهما، ثم سرعان ما سرت عدوى الضحك إلى صبحي نفسـه الذي أدرك سـبب ضحكهما فقال وأثار الضحك لـم تفارق وجهه: يا أخونا أنا أقصـد مجمعين أنتما الاثنان، مثنى

بالفصحى يعني، أما أنا فالقدس مسيرها تتحرر ونذهب معًا في صحبة أنا أقدس وأنتم تزوروا ، واعتدل "أنس" في جلسته فربع قدميه كمن يهيئ نفسه للاستماع لشيخ جليل ثم قال وهو يلقي بطرف نظره إلى مجموعة من المزارعين وقد انهمكوا في تنظيف أحد الجداول تمهيدًا لسريان الماء فيه:

ـ ولماذا الانتظار حتى تحرير القدس ألا يمكنك أن تذهب من الآن لتقدس؟

كان أثر تلك الكلمات أشبه بما تحدثه جمرة نار تلقى على قدم المرء فجأة، فقد بهت صبحي وتغير لون وجهه وقال وقد كست ملامحه مشاعر متضاربة من القلق والحيرة:

ـ "أنس" هل أنت جاد فيما تقول أم هو هزارك الذي تعودنا؟

والتقط صادق الكلمة الأخيرة وكأنه عثر فجأة على خرطوم إطفاء يمكنه استعماله لإطفاء ذلك الحريق الذي اشتعل وعلى وشك الخروج عن السيطرة، فقال وهو يرسم ملامح جديدة مصطنعة:

ـ هو بالتأكيد هزار "أنس" الذي لا ينتهي ولا يتوب عنه...

ولكن "أنس" بدا عليه أنه لا يرغب في أن يكمل رجل الإطفاء مهمته فقد قال في شبه حسم:

ـ لا... أنا أعني ما أقول، أوليس من المفترض أن الدين ليس له علاقة بالسياسة، أم هناك نص في الكتاب المقدس يحرم زيارة القدس أثناء الاحتلال؟

صبحي وقد بدت ملامح الغضب والاستغراب أكثر وضوحًا وهو يقول:

ـ لا أعتقد أن هناك نصًا دينيًا ولكن شفيعي المتنيح البابا شنودة قد تبنى قرارًا وطنيًا أننا لا نزور القدس غير مع إخوتنا

المسلمين بعد تحريرها.

أنس بعيون سارحة في نجم بعيد يتلألأ في السماء وعقل أرهقه التفكير والتأمل:

ـ أعذرني يا صبحي أنا لم أقصد شيئًا سيئًا... فقط أنا أفكر بصوت مرتفع في أمر أرهقني التفكير فيه.

صادق محاولاً مرة أخرى:

ـ ماذا حدث يا إخوة، هل أتينا اليوم تحت شجرة الجميز لنتكلم في الدين والسياسة، أم الأفضل أن نتحدث عن أدباء وشعراء مصر أو فلنقل الأهم أديبات وشاعرات مصر يا أستاذنا...

وانطلقت ضحكات عفوية من "أنس" وكأن رجل الإطفاء قد بدأت مجهوداته تكلل بالنجاح أخيرًا، وقال:

ـ لا جدوى منك يا صادق دائمًا تفكيرك في اتجاه واحد النساء وفقط وإن تعددت الزوايا والموضوعات...

وارتخى وجه صبحي وهو يلقي بقطعة من خشب السنط داخل المجمرة ثم نظر إلى "أنس" معاتبًا وقال:

ـ كأنك تغيرت يا أنس...

ـ لا يا صبحي لم أكن يوما لأتغير ولكن التغيير الحقيقي هو في حال السلامية.

وصمت قليلاً ثم استأنف قائلاً:

ـ هل تعلمون أن النائب عبد المعز جاء لي في البيت وطلب مني أن أنضم للحزب، لكني لم أوافق...

وابتسم صادق في دهاء وقال:

ـ ولماذا رفضت؟ أظن أن كثيرًا من الناس يتمنون أن ينضموا

لحزب حراس البلد.

أنس: أنا أيضًا لم أرفض بل أخبرته بأن يترك لي فرصة لأفكر.

صادق مستأنفًا: وهل هذا الأمر يحتاج إلى تفكير كثير.

أنس وقد أدرك ما يرمي إليه صاحبه:

ـ أنا لست من هؤلاء الناس يا صادق...

واستطرد وعلى وجهه ملامح الاستغراب:

ـ ثم منذ متى السلامية كان لها باع في السياسة.

فرد تلك المرة صبحي وقد ألقى بقطعة من الخشب في جوف المجمرة ليرتفع لهيبها الذي كاد يخبو وقال:

ـ "أنس" يا أديب فعلاً السلامية قبل ما تسافر لم يكن لأهلها اهتمام بالسياسة لكن بعد ثورة ٢٥ يناير السياسة دخلت كل بيت وكل قرية قبلي وبحري الحزب الوطني حل والنائب عبد المعز نائب الدائرة اختفى فترة ظهر فيها التيار الديني، ونجحوا في الانتخابات، وتاهت الناس في سنة حكمهم، كثرت المشكلات السياسية والاقتصادية، كهرباء وبنزين وغيره، الخلاصة يا أديب قامت ٣٠ يونيو وهناك من قال إنها ثورة وهناك من أكد أنها انقلاب، يعني لم نختلف كثيرًا عن القاهرة، ومن يومها رجع عبد المعز في ثوب حزب حراس البلد، والتيار الديني تراجع لكنه لم ينته.

أنس: عندك حق ثورة يناير كان لها تأثير قوي في نفوس المصريين، لمسته في القاهرة، لكن أعترف لك بأني لم أكن أتخيل أنه امتد بهذا الشكل العميق حتى وصل إلى السلامية المنسية.

صادق: بمناسبة السلامية المنسية طبعًا أنت تعلم أني من أكثر

الناس سعادة برجوعك للسلامية لكن فيه سؤال حيرني كنت أرغب أن أسأله لك.

أنس: قول يا صادق فمنذ متى كانت بيننا حواجز.

صادق: لماذا تركت القاهرة الآن وهي محتاجة لك ولأمثالك ورجعت السلامية تقضي وقتك تحت شجرة الجميز.

أنس وقد صمت قليلاً ربما ليبحث عن إجابة مناسبة ثم قال:

ـ أنا قمت بدوري في القاهرة ودافعت عن الحرية بكل جرأة ومن حقي أرتاح بين أهلي...

هكذا كان "أنس" يتحدث بكل حماسة متجاهلاً ذلك الصوت الذي كان يقهقه داخله.

صادق: أنت فعلاً من الناس إللى دافعوا عن الحرية والكرامة... وأكمل في شبه سخرية: إلا ما هي أخبار الحرية الآن؟

عندئذ شعر "أنس" بغصة في حلقه وبالحرارة تجتاح رأسه ليس بسب موقد النار المشتعل بخشب السنط ولكن بفعل الحوار الذي أخذ منحى لم يخطر بباله، ولم يتوقعه لذا لم يجب، فقط استعد للمغادرة قبل أن يخرجه من ذلك الموقف صبحي الذي أدرك حرج صاحبه فقال محولاً دفة الحديث إلى ناحية أخرى:

ـ يا إخواننا دعونا من السياسة فهي تفرق بين الأخ وأخيه، ولنتحدث في الحب وكلام القلوب يا أديب.

صمت "أنس" عندما سمع كلمة الحب تتردد أمامه، وقلب عينيه في وجهي صاحبيه ثم قال بنبره يملأها الشجن:

ـ في القاهرة لم أصادف الحب، لأن قلبي تركته هنا بينكم في السلامية...

حينها أدرك صبحي أنه قد أثار وتر حساس في قلب "أنس"

فصمت برهة تحاشي فيها النظر إلى وجه "أنس" وألقى بعينيه بعيدًا ، حيث أحد المزارعين قد انهمك في رمي البذور في حقله ، وقد رفع جلبابه وربطه إلى وسط خصره النحيل ، وحين أعاد صبحي النظر إلى "أنس" لم ينتظر أن يعاتبه على تلك الأيام التي نصحه فيها صبحي وصادق بترك أمر مودة ، وطاعة عبد الفتاح الجبالي وتنفيذ رغبته في ترك "أنس" للقرية لذا بادر صبحي مباشرة بقوله:

ـ "أنس"... "مَوَدّة" سيدة متزوجة ، صحيح ربما لا تكون سعيدة ، لكن هذا لا يبرر استسلامك للتفكير فيها.

"أنس" وكأنه التقط من كلمات صبحي ما يريده وترك الباقي متجاهلاً:

ـ تقول ربما لا تكون سعيدة ، لما تتوقع ذلك...

واستطرد وهو لا يستطيع أن يداري لهفته:

ـ أتعرف عنها شيئًا بعدما تزوجت وذهبت لقرية زوجها.

حينها تنهد صبحي وأمسك ببراد الشاي وغرزه في المجمرة بين خشب السنط الذي تحول جمرًا متوهجًا... وقال:

ـ ليس بالضبط لكن مرات شاهدتها في السلامية ، وسمعت أن زوجها يعمل في الخليج ويتركها في دار أبيها في الشهور التي يقضيها مسافرًا...

وهَمَّ أن يكمل حديثه ولكنه بتر كلماته من على شفتيه وصمت ، ثم نظر إلى صادق وكأنه يستحثه على إخراجه من تلك الورطة الحوارية التي لم يكن يرغب فيها ، ولكن صادق تجاهله وركز اهتمامه في براد الشاي الذي نزعه من بين الجمرات وهو ممسك بقطعة قماش صغيرة يتقي بها حرارة المعدن ، ثم انهمك في صب الشاي له ولرفيقيه ، وكأنه لا يسمع ما يدور ، مما جعل صبحي

يطلق ظفرة ضيق ثم يقول لأنس وقد كست وجهه ملامح التجهم:

ـ يا "أنس" نحن منذ سنوات لم نراك إلا عبر التلفزيون وكنا نسمع عن نجاحك وحياتك الجديدة، وكنا نظن أنك نسيت ما حدث معك في القرية وكان سببًا في مغادرتك إلى القاهرة، لكن الظاهر أن وجودك في السلامية غير مناسب الآن...

وركز عينيه في عيني "أنس" وقال بصوت يملؤه الرجاء:

ـ سافر يا "أنس" وارجع من حيث أتيت.

انتبه صادق فجأة إلى الجملة الأخيرة من كلام صبحي فترك كوب الشاي بجانبه ونظر إلى صبحي مستنكرًا وقال:

ـ يا صبحي لا تقول ذلك هذا لا يصح.

صبحي وقد مد يده إلى قطعة خشب وألقاها في المجمرة لتبدأ النار في الاشتعال من جديد وقال في لهجة أقرب إلى العتاب:

ـ أتعني أن نتركه هنا في السلامية لكي يرجع يتعلق بحبل مهترئ...

ثم صمت وأكمل وعلى وجهه ملمح الجد:

ـ قصدي حبل مقطوع ولا يجوز أن يوصل ثانية.

"أنس" وقد أدرك أنه تسرع في السؤال عن مودة:

ـ يا صبحي وأنت يا صادق أنا لم أقصد شيئًا، ثم إننا أتينا هنا عند شجرة الجميز الأصيلة لكي نسترجع الأيام الحلوة وليس لفتح جراح ضمدتها الأيام...

قال جملته الأخيرة وعينيه لا تنظر إليهما، ولكن إلى تلك المياه التي غمرت تلك الأرض التي كان المزارع ينثر التقاوي فيها منذ قليل، وقد انعكس نور القمر المكتمل على صفحة الماء

فبدت وكأنها مرآة كبيرة، وحين هدأت حرارة المجمرة ومعها حرارة الحديث قال "أنس" لصاحبيه اللذين كان كل منهما ما زال يمسك بكوب الشاي شديد السواد في يده:

ـ أنا مضطر أن أغادر الآن لكن لنا لقاءات كثيرة قادمة تحت الأصيلة...

واستطرد قائلاً وهو يبتسم:

ـ وأنت يا صادق وأنت يا صبحي لا تناكفا كعهدي بكما، أو تناكفا كيفا شئتما فأنا أعلم أن نصيحتي لن تجدي نفعًا معكما...

حينها ابتسم الاثنان، ونهض "أنس" ليغادر وهو مشوش الأفكار مترنح الخطوات تغزو أنفه روائح الزرع المختلطة بنسمات الهواء الباردة التي هاجمت جسده الذي ابتعد عن المجمرة، وقد ارتفع عبر مسامعه نقيق الضفادع التي تنادي بعضها طلبًا للتزاوج، وتغزو رأسه ذكريات قديمة عاشها في القرية مع أخرى مر بها في القاهرة، بينما عاد صبحي وصادق لإلقاء قطع الخشب في المجمرة ليبدأ لهبها في الاشتعال من جديد، ويستأنفا الحديث الذي لم يكن "أنس" ليسمعه بعد أن ابتعد عنهما، وإن كان يدرك أن حوارهما لم يكن إلا عنه.

***

٨

وفاة صفية

اليـوم هـو الثالث منذ عـودة "أنس" إلى السـلامية، من بدايته لـم يكـن يومًـا عاديًـا فقد أيقظته شـيماء علـى نبأ وفـاة صفية الدكرونـي أم طـارق وحثته إلى الإسـراع للحاق بصـلاة الجنازة في المسـجد، اغتسـل سـريعًا وخرج من الدار إلى السـاحة التي أبصرها مكتظة بالرجال الذين يتدفقون إلى المسـجد والنسـاء المتشحات بالسواد والمنزويات في ركن قصي في انتظار خروج النعـش لينعقوا خلف الجثمان الراحـل وكثير من الأطفال الذين كانوا يلهون غير عابئين بما يجري أو بتلك الصيحات التي كانت تأمرهم بالانصراف دون جدوى...

بعـض الشـباب فوجئـوا بأنـس بينهـم فالتفوا حولـه معانقين ومرحبيـن بوصولـه... وفي نفـس الوقت معزين له فـي وفاة صفية الدكروني، لم يشـعر منذ مدة بدفء تلك المشاعر التي تجاوب معهـا وهو يشـاركهم الهرولة فـي دخولهم المسـجد حتى إذا ما اصطفـت الصفوف وأُديت الصلاة أسـرع "أنـس" في حمل النعش مـع آخرين إلـى مقطورة الجرار الزراعي الـذي يعمل بجوار عمله الأساسي في نقل المحاصيل الزراعية من أماكنها بالحقول إلى الشوادر والأسواق، بالإضافة لنقل جثامين الموتى دون مقابل إلى مثواهـم الأخير في المقابر التي ترقد مطمئنة تحت سـفح الجبل الشرقي للسلامية...

كان "أنس" حينئذ قد استقل سيارته مصطحبًا صادق وحسنين، ومع تجمع السيارات وتحركها تجمعت بداخله الذكريات كتجمع

غيوم الشتاء التي لم تبارح سماء السلامية بعد...

وتذكر تلك السيدة التي كانت تتمتع بشخصية قوية وذكاء فطري أسر محمود الجبالي فهام به، وتذكرها أيضا حين كانت تأتي إلى أمه سنية فيندلع بينهما السجال بعد أحضان الود وحرارة اللقاء أمه كانت ولازالت تري أن المناصب يجب أن تورث، فالعمدة يرثه أبنه ليصبح عمدة، وقس على ذلك من الخفير إلى الوزير إلى الرئيس، دون اعتبار لمسألة الكفاءة، بينما كانت يرحمها الله كزوجها محمود الجبالي متفتحة العقل ترفض الطبقية والعصبية، وعاشت حتى رأت ما كانت تجادل به مع سنية، تنادي به الملايين في شوارع مصر وميادينها أثناء ثورة يناير، مسكينة يرحمها الله قاست وعانت مع زوجها تلك المعاناة التي بدأت فصولها وأنس ما زال طفلاً حيث احتدم الصراع بين عائلتي الجبالي والمكي حين قتل ربيع أبو مكي واتهم بقتله محمود الجبالي الذي أنكر صلته بالجريمة وقد كان رجلاً مثقفًا متعلمًا يكره سفك الدماء فآثر الهروب بزوجته وابنه الوحيد إلى القاهرة ليجنب العائلتين الصدام، ولكن بعد سنوات قتل محمود الجبالي في القاهرة برصاصة غادرة في ظهره وعاد ابنه طارق يطلب ثأره من المكية، وشاهد "أنس" بعينيه أبيه وأعمامه وهم يتأهبون للانتقام من عائلة أبو مكي لولا ظهور الحقيقة وتمكن الشرطة من القبض على القتلة الحقيقيين الذين كانوا يحاولون زرع الفتنة بين العائلتين ورغم تصالح الأيدي ظلت الضغائن راسبة في القلوب.

هرب "أنس" من أمواج الذكريات المتتابعة إلى تأمل الزراعات المنتشرة على جانبي الطريق المؤدي إلى المقابر، سمة نفحة عطرة اصطدمت بأنفه محملة بروائح الزرع الندية فأنعشت قلبه الحزين، وتساءل، أين الصحراء التي كانت هنا، لقد أضحت

كل تلك البقاع خضراء، جميل هذا التوسع ولكن لما الطريق هكذا ضيقًا متعرجًا، رغم أنها كانت في البدء صحراء يستطيعون ترك ما شاءوا فيها ليكون طريقًا واسعًا...

وجاء الصوت من خلفه وكأن صاحبه كان على اتصال خفي بما يدور في عقله:

ـ تستغرب يا "أنس" من المنظر الذي تراه، هذا كله ملك بضع أفراد من كبار السلامية الجدد من الذين سافروا للخليج يضاف إليهم عدد من تجار السلاح، لكن حال بقية الناس كما هي لم تتغير...

ثم أردف: يا "أنس" هؤلاء لو بيدهم الأمر كانوا دفنوا الأموات في فساقي مثل البندر، ولما تركوا تلك الأرض كلها للجبانة...

وأومأ "أنس" برأسه لصديقه دون أن يلتفت إليه، علامة على تفهمه لما قيل، في ذلك الوقت كان حسنين يرنو بعينه إلى الأمام حيث موكب الجنازة يتهادى ببطء خلال الطريق الضيق المتعرج الذي يتقدمه الجرار الزراعي وقد وضع النعش في منتصف مقطورته يجلس طارق ملتصقًا به وقد انهمك في تلاوة آيات قرآنية بصوت خافت بينما دموع الحزن قد فاضت من عينيه فاتخذت لها مجرى على خديه، وكان الرجال قد جلس بعضهم القرفصاء بجواره وبعضهم الآخر جلس على حواف الأبواب الثلاثة للمقطورة، وبين الحين والآخر كان يعلو صوت بعضهم يدعوه للصبر ولأمه بالمغفرة...

ووصل الموكب أخيرًا وهبط الرجال من السيارات لتبدأ مراسم الدفن حيث أنزلوا الجثمان بسرعة إلى اللحد الذي كان قد أعده التربي كامل المنادي قبل وصولهم، وحين بدأوا في

إهالة التراب احتضن "أنس" طارق مواسيًا ثم اتجه عائدًا إلى سيارته بعد أن تصاعد الغبار الناتج عن الردم وضاق به صدره مكتفيًا بالنظر من خلف زجاج السيارة متأملاً حسنين وصادق الذين أمسكا كريكين وانهمكا مشاركين في إهالة التراب مع كامل وعدد من شباب القرية بينما وقف آخرون على شفير القبر بعضهم يقرأ القرآن وبعضهم يتحدث مع البعض الآخر، وحين انتهوا عادوا إلى السيارات التي أقبلوا فيها، وعاد صادق وحسنين بوجهين وملابس قد صبغوا بلون واحد هو لون التراب، وحين أدار "أنس" محرك السيارة لينضم إلى موكب السيارات العائدة للقرية بادره حسنين وقد أرخى مقعده إلى الخلف وبدا وكأنه ينظر لمكان بعيد غير منظور وقال:

ـ "أنس" ترى ما عاد بك إلى القرية بعد الغيبة الطويلة؟

أثار سؤال حسنين المباغت وغير المتوقع باطن "أنس" فلم يعرف بماذا يجيب وتذكر أن تلك هي المرة الثانية التي يُسأل فيها ذلك السؤال وتوقع أنها لن تكون الأخيرة... وأدرك صادق حرج الموقف فسارع مردفًا بقوله:

ـ أهذا وقت ذلك السؤال أو مكانه المناسب يا حسنين...

وشعر حسنين بالخجل، ورأى أن صادق مصيب في أن الوقت غير مناسب لذلك السؤال، وإن كان في قرارة نفسه كان يتمنى لو أن "أنس" أجاب عن السؤال الذي شغل عقله، لماذا عاد "أنس" بعد سنوات غياب عن أهله وقريته لم يزر عائلته ولا مرة واحدة خلالها، والأدهى أنه قطع صلته بالقاهرة فغير رقم هاتفه المحمول وبدا وكأنه عاد ليقيم فترة طويلة أو ربما تكون إقامة دائمة في القرية...

أما "أنس" فقد بدا أنه شعر بالارتياح لأن صادق أعفاه هذه

المـرة مـن حرج الغوص مع حسـنين في حوار في موضوع شـائك يحاول تجنب الخوض فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وخاصة أنه يعلم أن الإجابة ثقيلة لا يسـتطيع أن يلقي بها إليه في وقت قصير تسـتغرقه جلسـة سيارة تسـير في موكب جنائزي ، وساد صمت مهيب لم يكن يجرحه سوى محاولات "أنس" الحثيثة لتفادي الحفر والمطبات التي توزعت على طول الطريق من المقابر إلى السلامية.

***

٩

أطياف الماضي

اقتحم عالمها الليلة بملامحه الهادئة ونظرة الأسى الساكنة في عينيه، هو لم يتغير، ما زال بنحافته وسمرته، هكذا رأته في منامها يلقي بقصيدة اللوم على مسامعها:

هل كنت يومًا حبيبتي، هل تخجلين لرؤيتي

هل غدوت محرمًا، كالشجرة في الجنة

دون أن تدري وجدت نفسها تصم أذنيها وتصحو من نومها لتستقر جالسة فوق سريرها تقلب عينيها في أرجاء الغرفة، وقد تسلل إليها عبر الشرفة شعاع واهن من نور القمر الذي لم يصبح بدرًا بعد، فركت عينيها بيديها لتبعد النوم عنها، وتأملت لثوانٍ أختها الصغرى، النائمة على السرير المجاور، قبل أن تتوالى الأسئلة، وتحتشد في رأسها كغيوم الشتاء حين تدهم سماء السلامية في أوائل شهر طوبة.

ترى هل كانت حقًا هائمة بأنس، أم هي تلك الكلمات التي كان يلقي بها على أسماعها عبر أخته، وقد حملت حروفها طلاسم السحر الآسر الذي يفتن القلوب الغضة؟ وهل كانت إلا قلبًا غضًا تعاقبت عليه الهموم والآلام، تتذكر أول مرة رأته فيها، كانت عائدة من المدرسة برفقة شيماء، وقد استوقفهما، وتحدث مع أخته عن أحوالها الدراسية، كانت حينها في الصف الثالث الثانوي التجاري، وكان يتحدث مع أخته بينما عينيه تتفحص مودة، وقد اصطدمت عينيها بعينيه، فانتابتها رعشة

خفيفة سـرعان ما اسـتأذنت على أثرها في المغادرة، ولم تنتظر الرد، ذلك كان اللقاء الأول، وقد علمت فيما بعد أن طوال الطريق المتبقي إلى منزل عبد الفتاح الجبالي كان الحديث يدور حولها، فقد حاصر "أنس" أخته شيماء بالأسئلة عنها:

ـ ما اسمها؟

ـ مودة.

بلهجة حالمة: اسم جميل، بنت من؟

ـ شيماء وهي تنظر إلى "أنس" وكأنها فجأة اكتشفت شيئًا:

ـ لماذا تسأل؟

أنس وهو يتصنع اللامبالاة:

ـ مجرد فضول لأني رأيتها معكي قبل الآن.

شيماء وهي تهز رأسها وكأنها اقتنعت بحجته:

ـ حسنًا هي بنت راشد أبو مكي.

وهكـذا لم يصـلا إلى المنزل إلا وكان قد تعلق قلبه بمودة، وهكذا أيضًا نقلت شيماء ما دار بينها وبين أخيها من حديث عن "موَدّة" إلى مودة، لتتذكره بعد مرور كل تلك السـنوات في ليلة وهن فيها نور القمر، واشتد طيف ذلك العائد من أضواء القاهرة إلى غياهب السلامية المنسية.

أعـادت النظر إلى أختها في السـرير المجـاور، جميلة عزيزة يحبهـا أبيهـا راشـد، وموَدّة أيضًـا تحبها فهي الأخـت والصديقة والونيسـة التي تشـاركها البيت والغرفة في الفترة التي يقضيها زوج "موَدّة" مسافرًا في عمله بشركة النفط الكويتية.

انتبهـت "موَدّة" من تلك الأفكار على صوت أبيها يتمتم بدعاء وهو يستعد للخروج ليصلي الفجر، وعادت الأسئلة من جديد، هل

يحق لها أن تحنق على أبيها لأنه رفض أن تتزوج بمن تحب، كثيرًا ما كانت تسأل نفسها ذلك السؤال:

ترى ماذا كان في ذهن أبيها عندما رفض ابن عبد الفتاح الجبالي، هل كان الحقد القديم بين الجبالية والمكية، أم هي تلك القصائد التي كتبها "أنس" بقلم الحب وحملت فحواها رياح النميمة إلى الوشاة في القرية فنقلوا خبرها إلى راشد، بعد أن لبسوا ثوب الناصحين، فكان رفضه لأنس حتى لا يؤكد وجود صلة بين "أنس" ومودّة قبل أن يطلب يدها، رغم أنه كثيرًا ما قال لها أنه يثق بها وبتربيته لها، فماذا إذن؟ أيكون الرفض لأن "أنس" ورغم شهادته العليا وأسرته ذات الأصل الطيب إلا أنه لم يكن من أغنياء القرية، خاصة بعد أن انقلبت الموازين في القرية بسفر عدد من أبنائها إلى دول الخليج وعملهم هناك بشركات النفط، ولكن هم أيضا أسرة فقيرة، بل أفقر من أسرة عبد الفتاح الجبالي، نعم ربما كان أبوها وأمها لا يريدان أن تعيش عمرها في الفقر الظاهر عندهم ثم في الفقر المستتر عند آل عبد الفتاح الجبالي، وربما لهذا السبب وافق أبيها على تزويجها من ذلك الشاب القادم من قرية مجاورة بصحبة عمه وأبناء عمه لا يعلم شيئًا عن قصة "أنس" ومودة، فقط لأنه يعمل في شركة نفط كويتية يظل فيها لثلاثة أشهر ثم يعود إجازة لمدة شهر يأخذها خلالها إلى منزله الفاخر في قريته، ثم يعود بها إلى منزل أبيها، لأنه لا يجد أأمن من بيت أبيها يطمئن عليها فيه أثناء غيابه، مر وقت طويل وهي مستيقظة في الفراش تستعيد في عقلها ما كان، وتسأل نفسها لماذا كان، وفي النهاية ألقت بعتابها على الأقدار كما تعودت أن تفعل، واستيقظت عزيزة ذات الثمانية عشر ربيعًا، كانت حين جرت الفواجع قبل سبع سنوات ما زالت غضة الغصن تسير نحو الأنوثة الكاملة بخطى ثابتة، فالجسد بدأ يميل إلى الامتلاء،

وقد برز منه على استحياء ثديين منتصبين لم يقلل من نفورهما حمالة الصدر التي سعدت بارتدائها دون أقرانها، وتلك الملامح لعزيزة كانت تسعد أمها فهيمة، وتخيفها في نفس الوقت، أما السعادة فلأن عزيزة كانت تذكرها بنفسها حين كانت في مثل سنها يضرب بها المثل في الأنوثة المبكرة، مما أمن لها زواجًا من راشد أبو مكي الذي كان يكبرها بعشر سنوات، وهي لم تتجاوز الخمسة عشر عامًا من عمرها، ولكن مع عزيزة فالأمر قد اختلف، لأن الزمن لم يعد كالزمن، كما أن "مـوَدّة" التي كانت تكبرها بخمس سنوات كاملة، وهي الأولى بالزواج، والمقدمة في كل الأحوال لم تكن تتمتع سوى بوجه طفولي وجسد يابس وإن لم تعدم برغم ذلك تناسق القوام وتلك العينين العسليتين اللتين هام بهما "أنس" شعرًا، وإن شكل ذلك للبعض مسار دهشة، ولكنه فسر من البعض الآخر على أنه شطحات الشعراء، أو هو جنون الحب، قال ذلك ذات يوم لطفي صديق "أنس" ورفيقه في القاهرة: من يستطيع أن يجزم بأن عبلة كانت كما وصفها عنترة وتغني بها في أشعاره من الجمال والبهاء، ومن يستطيع أن يجلب لنا صورة ليلي العامرية لنحكم بمقاييس الجمال الحديثة إن كان هيام قيس بها عن جدارة واستحقاق، أم هي عيون المحبين ترى في المحبوب الجمال الكامل، وتهيم بالروح قبل أن تعدد محاسن الجسد، ولأن عزيزة تتمتع الآن بالأنوثة الكاملة والحس المرهف، فقد كانت أكثر الناس تعاطفًا مع مودة، وحين أبصرتها ذلك الصباح ترنو بعينيها إلى سقف الحجرة الذي تحمله جزوع النخيل وجريده، قالت وهي ترفع عنها الغطاء في تكاسل واضح تعودت عليه منذ أن بدأت الدراسة قبل شهور وقد أمسكت بخصلات شعرها الغزير الناعم تهزه وكأنها تريد إيقاظه مثلما استيقظ باقي جسدها اللدن: صباح الخير يا "مودّة"

ما الذي أيقظك مبكرًا على خلاف عادتك.

مـوَدّة بعيـون متراخية، ولكنها تشـع ببريق غريـب ظهر منذ ساعات وكانت عزيزة تدرك سببه وتخشى عواقبه:

ـ أبـدًا سـمعت صوت أبيك وهو خارج لصـلاة الفجر فوجدت نفسي قد استيقظت وحدي.

عزيزة متنهدة وقد انتابها إحساس بكذب ذلك الادعاء:

ـ إذن لماذا لم تفطريه طالما كنت مستيقظة على صوته.

"موَدّة" وقد أدركت أن حجتها لا تقف على قدمين:

ـ لأنه غادر بسرعة فلم أدركه.

عزيزة متنهدة وقد انتصبت واقفة علامة استيقاظها الكامل:

ـ اللّه يرحـم أمنـا لو كانت حية لم تكن لتتركه يخرج دون أن تتأكد أنه تناول إفطاره...

ثم غادرت الحجرة لتتجه إلى المطبخ وفق ترتيب روتيني اعتادت عليه كل صباح، بينما تركت "موَدّة" وقد حركت ذكرى أمها كومـة من الأفـكار المحتشـدة في ركن قصي مـن الذاكرة تحاول طمسه ومحوه، ولا تستطيع حيث تتحرك تلك الكومة عند كل مرة يتردد فيها ذكر الأم على مسامعها فيتدحرج سؤال من تلك الكومة هامسًـا بصوت كفحيح الأفاعي بقوله: لولا فهيمة مـا كنـت اليوم في هـذا البيـت تنتظرين ذلك الـزوج الذي ترينه ثلاث أشـهر في العام فلا تكادين تشعرين بوجوده، يأتي ليقابل الأصحاب ويشـتري الأراضي، ويجرب فيكي آخر ما توصلت له شـركات المنشطات الجنسية، ثم يتركك بعد أن يجلبك لبيت أبيك لتزداد روحك يبوسة على يبوستها، هو لم يسمعك طوال تلك السنوات كلمة أحبك، يقول الأحمق إنه لا يحتاج لقولها، فأفعاله

تـدل عليها كل الدلالة ، أي أفعال تلك ، الذهب والملابس وذلك المنزل الفاخر الذي يرتفع في قريته حاجبًا الهواء عن منازل عمه وأبنائـه الذيـن يلبسـون أقنعة الـود أمامه وهم في قرارة أنفسـهم يتمنـون ألا ينجب لكي يرثـوا أمواله في يوم من الأيام ، وإن طال الزمن ، وتردد ذلك السؤال القديم الجديد ، هل تتحمل الأم ذلك الواقع الذي آلت إليه ، أم أنها سلبيتها واستسلامها هي ، وألا يغفر لأمها أنها كانت تبغي لها الخير عند الرجل الموسر ، ألا يكفي أنها لم تكن لتتحمل أن يلوك أحد سـيرتها إذا ما تردد خبر حب "أنـس" لها وأشـعاره فيها ، ثـم بعد كل ذلك ألم تمُـت فهيمة بين يديها ، وقد أمسـكت بيدها ، وأوصتها بأبيها وأختها الصغرى ، فلم تصر إذن أن تحملها وأبيها جريرة ما تعيشه الآن من تعاسة إلا أنها سمعت أمس وهي تشتري خبزًا من مخبز السلامية أن "أنس" الجبالي عاد إلى القرية منذ يومين بعد غياب دام سنين ، ترى أهذا ما أهاج باطنها وجعلها تشعر أنها لو كانت تزوجته لكانت اليوم أسعد النساء ولأنجبت منه أطفالاً ملأوا حياتها بهجة بدلاً من ذلك الـذي يرفـض أن يطلعها أو أبيها على التقاريـر الطبية التي تتعلق بقدرته على الإنجاب ويكتفي بالقول بأنه سـليم صحيًا ويطالبها بمزيـد مـن الصبر ، وفجأة توقفت تلك السـجالات علـى أثر نداء أطلقته عزيزة تحث فيه "مَوَدّة" على القدوم لتناول الإفطار معها ، واسـتجابت "مَوَدّة" بعـد أن وجدتها فرصة تقطع بهـا هذا الخيط مـن الأفكار والذكريات ، لتبدأ في وصل خيط آخر ، هو خيط الأعمال المنزلية التي سوف تنهمك في تأديتها بعد تناول إفطارها مع عزيزة ، ومغادرة الأخيرة للمنزل ذاهبة لمدرستها الثانوية.

***

١٠

عزاء صفية

جلس القارئ متربعًا على مقعده داخل مندرة الجبالية، ووقف شباب العائلة وشيوخها في صف طويل يستقبلون المعزين، الذين توافدوا من السلامية والقرى المجاورة، وكان "أنس" مرتديًا جلبابه الصعيدي ذي الأكمام الواسعة وقد وقف بجوار باب المندرة من الخارج وبجواره حسنين وطارق بينما بقية رجال العائلة في الداخل يرفعون أيديهم لتحية الجالسين وهم يرددون: (شكر الله سعيكم)... وفي مواجهة الداخلين غير بعيد عن الباب وقف شاب يرشد المعزين إلى الأماكن الفارغة بالمندرة...

وحين بدأ القارئ في تلاوة القرآن الكريم وصدح صوته عبر الميكروفون، أرهفت الأسماع وتمتمت بعض الألسنة (الله الله) حتى إذا ما أدرك القارئ بعينيه أن المندرة تكاد تمتلئ عن آخرها بالمعزين، صدق ودعا لقراءة الفاتحة لتبدأ الأفواج في الخروج في صف منتظم متبوعين بتحيات "أنس" وأبناء عمومته الواقفين بالخارج، ..

وهكذا استمر العزاء على نفس تلك الوتيرة حتى إذا ما تقدمت ساعات الليل وقلت الأعداد القادمة أو كادت تنعدم وتباعدت الأوقات بين تلاوة وأخرى دخل "أنس" إلى المندرة وجلس في ركن طالما أحب أن يجلس فيه...

هناك على الدكة القابعة تحت شجرة التوت التي تعرت من أوراقها بفعل البرد القارص في ذلك الشهر من السنة، ومن هذا الركن القصي الذي يشرف على المندرة دون أن يلفت الأنظار

تأمل الوجوه التي جف ماؤها وبرز منها عظام الوجنتين وغذي شعرها الشيب، وقد أبصرها صغيرًا تمتلئ بالشباب والحيوية، وهذا الشاب اليافع الذي كان يرشد الداخلين إلى المقاعد الفارغة والذي يجلس الآن يتحدث مع طارق وحسنين على أحد الدِكك الخلفية بالمندرة، كان قبل سنوات فتى لم يزل تتناثر شعيرات خفاف تحت أنفه قد غدا اليوم كث اللحية والشارب...

وتحدث الصوت المعهود داخله ليذكره بأنه هو أيضًا لم يعد نفس الشاب الذي غادر السلامية قبل سبع سنوات فقد تغير العقل والفكر في القاهرة، وسافر به خياله متذكرًا بداية وصوله إلى القاهرة، حينها كان عليه أن يجد عملاً يتكسب منه، فذهب كما أوصاه أبوه إلى زين حمدون الجبالي الذي يعيش في القاهرة وتزوج فيها منذ سنين، ولم يخيب الرجل ظنه ولا ظن أبيه عبد الفتاح فقد رحب به وساعده على إيجاد فرصة عمل في المقهى الكبير بوسط البلد الذي يملكه صديقه زين، وأسند له صاحب المقهى مهمة تلقي الطلبات من الزبائن ليكلف بها هو بدوره الجرسونات العاملين، في البداية شعر أن تلك المهنة لا تناسبه ولا تلبي طموحه، لم يكن يعلم حينها أن تلك المهنة بالذات سوف تكون بداية الطريق لصعود نجمه، فقد اتضح له بعد وقت قصير أن ذلك المقهى يرتاده أغلبية الأدباء والشعراء الشباب منهم والكبار فيتبادلون الأحاديث ويقضون الأمسيات، فلم يكتف بالإصغاء لطلباتهم المتواصلة للمشروبات، بل شاركهم نتفًا من أحاديثهم حول الشعر والقصة، حتى جاءت الفرصة وعرض بعض أشعاره وقصصه على مجموعة من الشعراء الشباب الذين تواجدوا في المقهى فأعجبوا به وألهبوا حماسه، كانت قصائده حينها تتناول الحب والغربة...

ثم رويدًا رويدًا شعر بما يدور في القاهرة من حراك سياسي

اجتماعي فخرجت قصائده وقصصه تنتقد السلبيات وتلهب المشاعر، حتى مكنه أحدهم من الظهور في إحدى المحطات الفضائية الشهيرة فتلا بعض قصائده بصوته الذي يحمل اللهجة الجنوبية المميزة ومن تلك اللحظة فتحت له أبواب الشهرة...

وحين اندلعت ثورة يناير كان من أوائل من انضموا إليها، كان ذلك في البداية حينما كان الجميع على قلب رجل واحد، أو هكذا كان يظن، فقد اكتشف لاحقًا أن الصدع بجدار الثوار كان موجودًا على الدوام، ولكن أحلام النصر كانت تخفيه تحت هالة من الآمال، ثم انكشف الغطاء وتجسد الانقسام راسخًا على قدمين، فهناك من يرغبون بمجلس رئاسي مدني وهناك من يتحمسون للمجلس العسكري، وهناك من يسعون إلى انتخابات سريعة توصلهم إلى السلطة، وهناك من يطالبون بالإسراع في محاكمة المفسدين وتحقيق أهداف الثورة قبل كل شيء وهؤلاء أغلبهم لم يكونوا ينتمون إلى تنظيم سياسي أو تيار ديني...

وقد كان "أنس" أحد هؤلاء الشباب فكان إعلانه عن رأيه عاليًا مدويًا من فوق إحدى المنصات التي كانت منصوبة خلال إحدى المليونيات التي أعقبت رحيل مبارك عن السلطة، فانصرفت مجموعات ممن كانوا يستمعون إليه اعتراضًا على ما يقوله، فخرج من كانوا يرغبون في انتخابات سريعة، ومن كانوا يرون التريث وعدم الإسراع في المحاكمات وهكذا...

ومنذ تلك اللحظة قرر "أنس" ألا يبوح برأيه صراحة حتى لا يفقد جزءًا من جمهوره، ويكسب أعداء معتبرين، فلم يعد يبوح برأيه صراحة وفضل المواربة...

ثم جاءت ٣٠ يونيو فأبصر بعينيه بعض من كانوا يقفون معه بميدان التحرير في يناير بجانب من ثاروا عليهم كتفًا بكتف

فأخـذه العجب، وأنـزوى جانبًا ، ثم جاء الوقـت الذي أصبح فيه الجميـع يخـون بعضه البعض، فـازداد انزواؤه وقـد تجاوز خوفه مسألة فقد عدد من جمهوره إلى خشيته من أن يلقى مصرعه على يد من يرتدون عباءة الدين أو يلقى به في غياهب السجون بأيدي من يرتدون عباءة الوطنية...

واكتشف ويالعجب أن التيارات المتلاطمة التي هرب منها في القاهرة غدا لها في السلامية نظير يصارع بعضه بعضًا وسيتحتم عليـه عاجـلاً أم آجـلاً أن يوضح موقفـه منها وأن يعلـن رأيه فيما يجري، وهكذا وجد نفسـه كمن هـرب من الموت في القاهرة ليجده ماثلاً أمامه في السلامية...

وهكذا رجع إلى قريته بحجة اشتياقه لعائلته، فكانت عودته إيقاظًا لماض لم يستطع مواجهته من قبل، كما لم يستطيع مواجه حاضره الآن...

وبينمـا "أنـس" يزيـح عنـه أمـواج الذكريـات التـي اقتحمت وجدانه، كان الشيخ القارئ يرفع صوته بالدعاء للميتة بالمغفرة والرحمة بينما المعزون يأمنون على دعائه ويقرأون الفاتحة، بعد ذلـك نزل الشـيخ من مكانه وحيا الحضور بإشـارة مـن يده، ثم انصـرف خارجًا قاصدًا منزله وتبعه عبد الفتاح الجبالي إلى باب المنـدرة احترامًـا ، ثم انصرف بعد ذلك بقيـة المعزين، ولم يتبق سوى رجال عائلة الجبالية الذي اتخذ كل منهم دكة لينام عليها ليلتـه، بينما فضل "أنس" المبيت على دكته المفضلة التي كان يجلس عليها ، وحين سـاد السكون المكان إلا من أصوات نباح لكلاب بعيدة وأعيرة نارية بين حين وآخر، يطلقها الساهرون في الحقول لإخافة اللصوص والذئاب، تمدد وغطى جسده ببطانية إلى منتصف صدره اتقاء البرد ، وتأمل السماء الصافية الآن أمامه بعد

أن انسحبت أخر السحب التي كانت تظلل سماء السلامية بعيدًا باتجاه الجنوب، لتظهر بعدها السماء صافية تتلألأ فيها النجوم ساطعة لا يشاركها بهاؤها حتى نور القمر الذي طالما سرق منها عيون العشاق والشعراء، فقد كان الليلة في طور الهلال هزيل الشعاع، ونام "أنس" على ذلك المشهد البديع في انتظار اليوم الثاني من العزاء الذي يستمر ثلاثة أيام حسب عادة السلامية المتوارثة.

***

١١

وجهًا لوجه

مع إشراقة اليوم الثاني استيقظ الجميع وتناولوا شراب الإفطار الذي أحضره حسنين من منزله القريب للمندرة، وكان عبارة عن أكواب لبن دافئة أعدتها زوجته فتحية، بعد ذلك أعادوا ترتيب المقاعد والدِّكك بعد أن أدخلوا البطاطين إلى غرفة مخصصة لحفظها ثم استعدوا لاستقبال المعزين مثل اليوم السابق، وعندما حان موعد الغداء توجه "أنس" إلى منزلهم ليأتي بصينية الغداء، حيث تقضي العادة أن تخرج منازل أهل القرية وجبتي الغداء والعشاء طوال مدة العزاء فيكون كل منزل قد أخرج وجبة على الأقل خلال الثلاثة أيام.

حينما وصل بالقرب من دار أبيه عبد الفتاح غزت أنفه روائح الطعام منبعثة من شباك المطبخ المطل على الشارع، وقد خمن وهو يفتح الباب الذي كان مواربًا في الأصل أن الغداء لم يتم إعداده بالكامل بعد، وعلى ذلك استعد لممارسة دوره الذكوري في تأنيب أخته شيماء على التأخير، وأعد نفسه لتذكيرها بأن صينيات الغداء المعدة لضيوف العزاء بالمندرة قد بدأت تخرج من منازل القرية، هذا ما نواه قبل أن يتسلل لسمعه صوت شيماء تتحدث مع صوت آخر يعرفه جيدًا، أصدر كحة مفتعلة ثم رفع صوته مناديًا:

ـ شيماء.

ساد صمت قصير ثم فتح الباب لتقع عينيه على "مَوَدّة" بعد أكثر من سبع سنوات من آخر مرة رآها فيها، الجسد بدا هذيلاً

أكثر مما كان ولكن عيناها العسليتان ما زالتا تحتفظان ببريقهما القديم...

ـ كيف أنت يا مودة؟

وقد خفضت رأسها في حياء: الحمد لله...

لم تجب بأكثر من ذلك، بينما حاول هو أن يطيل الحوار...

ـ كيف حالك في الزواج، سمعت أن زوجك غني ويعمل في الخليج...

رفعت رأسها ولم تجب مودة، بينما كانت شيماء تنظر له نظرة شابها الحيرة والتوتر، ولكن "أنس" تجاهل صمت "مَوَدّة" وتوتر شيماء وأكمل:

ـ أين أولادك، لمَ لم يأتوا معك؟

هنا فغرت شيماء فاها استغرابًا من جرأته، بينما قلبت "مَوَدّة" نظرها بين "أنس" وشيماء ثم قالت وهي تهم بالمغادرة:

ـ بعد إذنكم لأني تأخرت...

وخرجت دون أن تنتظر منهما جوابًا، ودونما تفكير انطلق "أنس" خلفها (وهو التصرف الذي سيندم عليه لاحقًا أشد الندم حينما يتذكره وهو ملقى بين جدران زنزانة كئيبة) ولكنه تسمر على بعد خطوات من بيت أبيه حين أدرك أن الشارع مكتظ بالمارة الذين سلطوا عيونهم على "مَوَدّة" الخارجة من الدار وعلى "أنس" الذي سرعان ما شعر بتلك العيون المتلصصة والرؤوس التي تتحرك فوق الأعناق في حركة تدل على الاستنكار، وخشى مما يمكن أن يكون قد دار في تلك الرؤوس بعد رؤيتها لمَوَدّة وهي تخرج من بيت عبد الفتاح وأنس في أثرها، فعاد فورًا إلى البيت وأغلق الباب خلفه ليجد شيماء في مواجهته وكأنها كانت

تنتظر عودته:

ـ ما الذي قمت به، كيف تخرج خلفها هكذا؟

ـ اعذريني يا شيماء فإن أعز شيء على الإنسان ذاكرته، وتلك هي الإنسانة التي في يوم من الأيام لم أكن أكتب الشعر إلا لها.

شيماء وقد شملته بنظرة هي مزيج من الخوف والشفقة:

ـ أنت مخطئ يا "أنس" وما تقوله لا يصح وسوف يضرك ويضر الإنسانة التي ليس من حقك الآن حتى التفكير فيها...

صمت "أنس" وقد نكس رأسه خجلاً ثم رفع رأسه فجأة وكأنه رجع إلى صخرة الواقع بوجه عبد الفتاح الصارم وليس وجه "أنس" الحالم وقال:

ـ على العموم أنا لم أكن أعرف أنها موجودة في البيت، أما هي فانظري نظرات الحزن في عينيها.

شيماء وقد أحمر وجهها غضبًا: مرة أخرى يا أنس.

ـ أقصد أن لقاءنا اليوم كان صدفة لا تعطيها أكبر من حجمها...

ثم صمت قليلاً وتنحنح وهو يقول:

ـ ولا داعي لأن تعطي خبر لأبيك أو أمك أن "موَدّة" كانت هنا في غيابهم.

شيماء وقد فهمت مخاوفه:

ـ "موَدّة" وأنا نتبادل الزيارات عندما تأتي للإقامة عند أبيها...

ثم أعقبت بنبرة استسلام يشوبه الحزن:

ـ وعلى العموم حاضر... لكن عدني أن تفكر بشكل جدي في الزواج، أو ترجع إلى عملك في القاهرة، على الأقل

حتى عودة زوج "مـوَدّة" من الكويت واصطحابها لقريته واستطردت وهي تركز عينيها في عينيه:

ـ هذا أفضل من عودة أهل السلامية للحديث مرة أخرى في ما مضى، وأنت تعلمهم جيدًا...

نطقت الجملة الأخيرة بصرامة توحي بالتحذير، ثم استدارت لتدخل غرفتها وتغلقها خلفها، وكأنها تدعوه للعودة للمندرة من حيث جاء، وبالفعل حمل "أنس" صينية الطعام التي كانت قد أعدتها شيماء، وغادر إلى المندرة، وخلال الطريق لم يتوقف عقله عن التفكير فيما حدث.

***

١٢

قبل مقتله بأيام

حين هلت رياح أمشير وضربت بسياطها الناس والحيوانات، كان هو هناك يحزم حقيبته استعدادًا للعودة لمصر، بعد غياب دام شهور، كان تعود منذ سنوات على روتينية تلك الرحلة، ولكن تلك المرة بدا له أنها ربما تكون الرحلة الأخيرة التي يغادر فيها مدينة الجهراء الكويتية إلى مطار الأقصر الدولي في مصر، كان سبب ذلك الشعور هو صراع نشب بداخله على أثر أسئلة دارت في عقله، وحاصرت أركانه...

كانت البداية تبرق في رأسه كخاطرة سريعة خافتة الصوت ثم ما لبثت أن ارتفع صياحها، ولم ليعد بالإمكان إلا الإصغاء إليها بكل جوارحه، لما كل هذا العناء والسعي لجمع المال، وأنت الذي عشت وحيدًا لأبويك، وما زلت وحيدًا لم ترزق بولد يرثك حين يداهمك الموت، لماذا لا تصارح زوجتك بحقيقة مرضك الذي يحول دون إنجابك، وتقنعها بأنه ما يزال أمل ولكن بمزيد من الصبر، وأن اعتقادها بأنك تفضل العمل على أن تنجب وتصبح أبًا، هو اعتقاد خاطئ لديها...

هكذا كان يتردد صدى هذا السؤال في عقل جامع فتثور في نفسه مخاوف هي نفسها تلك المخاوف التي جعلته يسعى إلى الزواج من خارج قريته، ويوافق على الزواج من تلميذة لأحد أصدقائه الذي يعمل مدرسًا في المدرسة الثانوية التجارية بقرية السلامية التي تبعد عدة كيلو مترات عن قريته الشيخ موسى، والذي امتدح له أخلاقها، فوافق عليها حتى قبل أن يراها...

نعـم إنه الخوف من أن يضطر إلى الزواج من إحدى بنتي عمه غالـب، فتكتمل بذلك دائـرة الحصار حوله، تلـك الدائرة التي طالمـا شـعر بهـا منذ وفاة أبيـه وأمه في حادث سـير نجا هو منه بأعجوبة...

فـي البداية كان يظن أن مـا يلقاه من عناية وإحاطة واهتمام مـن عمـه وأبنائه، هو أمر طبيعي بعد ما ألم به من فواجع، وربما تكفيـرًا عن تلك الخلافات والصدامات التـي كانت دائمة بين أبيـه وعمـه، والتي غالبًا ما كانت تدور حـول المال، فأبوه دأب على اتهام عمه غالب بأنه مبذر، أضاع ما ورثه عن أبيهما، والعم غالب لم يترك فرصة يستطيع فيها الرد إلا وذكره بأن أباهما، قد أعطـى له الكثير من المال قبل وفاته بحجة أن صالح هو الأقدر على المحافظة عليه، ثم مات الأب همام ولم يأخذ غالب ما يعتقد أنه نصيبه من ذلك المال...

وحين ظن جامع أن عمه قد غدا سنده الوحيد في هذه الدنيا، وحين اطمأن لهذا الشعور وسعد به، أقبلت عليه المفاجآت واحدة تلو الأخرى، لتغير ذلك الشعور وتلك القناعة رويدًا رويدًا، وكانت البداية عندما أخبر عمه بأنه سيسـافر للعمل في شـركة بترول بالكويت، وسـيضطر إلى بيع جزء من ميراثه، ليدفع تكاليف السـفر، وعمولة الوسيط الذي سيجلب له عقد العمل، وتوقع أن عمه سـيبارك له هـذا الأمر، ولكن عمه ثار فـي وجهه وذكره بالمـال الذي اسـتولى عليه أبوه صالح من جـده همام، ورد جامع وقد تغير لون وجهه معبرًا عن غضب ألم بكل كيانه:

ـ عمي... سبق والمرحوم أبي تكلم معك في هذا الأمر، وأكد لك بأن كل الأموال التي تلقاها من جدي همام أنفقت على الأرض اللى ورثتموها، وأني كنت أظن أن تلك القضية قد

أغلقت للأبد لكن يبدو أني كنت مخطئًا...

وابتلع العم غالب ريقه وهو يرخي ملامح وجهه بعد أن أدرك بأنه لن يظفر من ابن أخيه بشيء، وأن ما قاله كان تسرعًا لا داعي له، فالولد وحيد وطموح ويمكن الوصول لكل ميراثه بطرق أخرى كثيرة، فلم إذن العجلة، وهكذا تبدلت ملامح غالب سريعًا، وبدأ يحاول إصلاح ما تلفظ به لسانه منذ قليل:

ـ جامع يا ولدي أنا أذكرك بهذا الموضوع لأجل أني أخاف عليك، وليس لأجل المال كما تظن.

جامع وقد بدت عليه ملامح الدهشة الممتزجة بالغضب:

ـ مما تخاف عليّ يا عمي؟

بود مصطنع: أخشى أن تكون سفرية الكويت وشركة البترول هذه خدعة نصب وتخسر أموالك، ثم أتبع:

ـ وأنت تعلم أنك غالي عندي مثلما كان أبوك قطعة مني.

ولم يقتنع جامع بحجة عمه غالب وأدرك أن دور العم الوالد لم يكن سوي قناع بدأ الآن في السقوط، ليظهر من خلفه الوجه الحقيقي، الذي طالما شاهده في حياة أبيه، وغادر جامع وعمل في شركة البترول الكويتية، وزاد ماله وممتلكاته بينما العم وأولاده ينظرون إليه بعيون امتزج فيها الإعجاب الطافي على الوجوه بالحسد القابع في حنايا النفوس، بينما الود والتملق يظهر في كل مناسبة، وكل إجازة يقضيها جامع في قريته، وحين شعر بحصار عمه وأبنائه له، ورغبة عمه في تزويجه من إحدى ابنتيه، حينها فقط قرر أن يلقي إليهم بنيته الزواج من بنت راشد أبو مكي، وبهت غالب وابتلع مرارة الخبر بل ورافقه إلى قرية السلامية ؛ ليزوجه من مودة، ولكن الضغينة ظلت قابعة في حنايا القلب، يظنها غالب وأبناؤه باطنة لا يدركها جامع، ولكن جامع يكاد

يشـمها من أنفاسـهم، ويراها في عيونهم مهما توددت الألسـنة، لذا لم يشأ أن يترك "مَوَدّة" بينهم في فترة تواجده في مقر عمله، وكان يصر على أن يرسلها إلى بيت أبيها، هذا ما دأب عليه منذ سـنين، وهـا هو الآن يعود وفـي نيته أن ينهي عملـه في الكويت ويظل بجانب مودة.

***

١٣

عودة جامع

الشمس تلملم ثيابها وتسرع الخطى نحو الأفق الغربي، فتصبغ صفحة السماء خلفها بلون الشفق الأحمر، والسيارة الأجرة التي يستقلها جامع تزيد أيضًا من سرعتها بزيادة ضغط السائق على دواسة الوقود بعد أن شعر بتململ الزبون بجواره، وقد عرف من حوار دار بينهما أنه قادم من الكويت، وأنه يعمل في شركة بترول هناك، وفي الحقيقة فإن السائق قد تهلل وجهه عندما سمع تلك المعلومة، فهذا يعني أن ذلك القادم من مطار الأقصر سوف يجود عليه بأكثر من الأجرة المعتادة، وكان ذلك السائق الثلاثيني ذو الوجه الأبيض والعيون الناعسة التي تكاد تشعر معها أنه أقرب للنوم منه لليقظة قد تعوَّد على الحديث مع الزبائن، خاصة الذين ينقلهم من المطار إلى قرى أو مدن بعيدة عن الأقصر، فقد كانت بالنسبة له فرصة جيدة للتسلية، كما كانت لجامع فرصة يعلم من خلالها أحوال البلد في الفترة التي غاب فيها عن مصر، فمنذ أن اندلعت ثورة يناير والأحوال تتغير بسرعة غير معتادة بمقياس أولئك الذين تعودوا أن تظل الأمور هامدة ساكنة طوال ثلاثين عامًا...

السائق حسن متسائلاً:

ـ وحضرتك تشتغل في الكويت من زمان؟

جامع وقد علت وجهه ابتسامة وهو ينقل عينيه ما بين السائق والطريق الزراعي الذي تناثرت على جوانبه القرى والزروع:

ـ أعمل منذ عام ٢٠١٠.

السائق حسـن: ما شـاء الله ربنا يزيدك من نعيمه، هذا يعني أنك دفعت كثيرًا لأجل فرصة العمل تلك، أم لك وسيط سهل لك الأمور؟

جامع: تستطيع أن تقول الاثنين معًا.

السائق حسن بصوت ملأه الرجاء:

ـ حسنًا، أيمكنك أن تسدي إلي معروفًا وتكون أنت واسطتي في إيجاد عمل هناك.

جامـع وقـد رنا بعينيه إلى الأمام وكأنه يسـتحضر رغبته في البقاء بجوار "مَوَدّة" بعد إنهاء عمله في الكويت: صدقني يا أسطى أن تظل في بلدك بين أولادك أفضل.

السائق في شبه تهكم وقد برزت أمام عينيه متطلبات أسرته التي تثقل كاهله:

ـ عيالي سيكونون في خير عندما أسافر وأحضر لهم أموالاً تساعدهم على تحمل الغلاء الذي طحن الفقراء بين فكيه.

جامع ملقيًا جملته قاصدًا المزاح:

ـ من قال لكم ثوروا على حسني مبارك.

السائق حسن وهو ينظر إلى الطريق أمامه بوجه متجهم:

ـ يا أستاذ الثورة ليس لها ذنب، ببساطة لأنها لم تأخذ فرصة لتصل للحكم، ولو حكمت ما كان حالنا ليبقي هكذا، وعلـى فكرة أنا حاصل على مؤهـل عال وكما ترى أعمل سـائق تاكسـي لأنه ليس لي واسطة تسـاعدني في الشغل بالمؤهل الذي شقيت وشقي أهلي لكي أناله.

شـعر جامـع بأنه نكئ جرحًـا غائرًا في نفـس الرجل، فقال بلهجة أكسبها الجدية:

ـ معذرة يا أسطى غدًا يفرجها الله بفضله...

واستطرد: أعطني رقم هاتفك وإن شاء الله لو أتيحت فرصة عمل أمامي تناسبك سأتصل بك.

كان جامع يعلم أنه لا ينوي العودة إلى عمله في الكويت مرة أخرى، ولكنه كان صادقًا في تعاطفه مع الرجل، ولم يشأ أن يغلق الأبواب في وجهه، كما أن السائق لم يعقد آمالاً كبارًا على ذلك الوعد، وإنما إضافة إلى قائمة الوعود التي تلقي على سمعه عبر وسائل الإعلام، وأعطاه رقم هاتفه المحمول، وساد الصمت بعدها بينهما حين وصلت السيارة إلى مشارف القرية حيث الطريق الشرقي، الذي ما زال ينوء بالمطبات والحفر العميقة التي جعلت السائق يتململ ويتمهل للغاية محاولاً تفادي تأثيرها على سيارته.

السائق حسن يستأنف حديثه:

ـ على فكرة يا أستاذ جامع لن تجد سائقًا يرضى أن يدخل لقريتكم بسبب المطبات والحفر التي تراها وتشعر بها بنفسك، لكن لأجل خاطرك أنا أوصلك حتى باب البيت.

جامع وقد أدرك غرض الرجل:

ـ أشكرك يا أسطى حسن، وكاد يخبره بأن السلامية ليست قريته ولكنها قرية زوجته، وتوقف عندما أدرك أنه لا داعي لذلك فقط اكتفى بأن قال له: على فكرة يا حسن هناك طريق غربي أفضل منه ولكن هذا الطريق قريب من البيت، وإن شاء الله سأعوضك عن تعبك، وأخرج من جيبه النقود الأجرة، وكانت كما تمنى السائق، مبلغًا سخيًا.

***

١٤

في منزل راشد أبو مكي

لم يخب ظن جامع فقد كانت "موَدّة" أول من أسرع ناحية الباب ليفتحه فقد كانت تعلم بوصوله منذ هاتفها من مطار الأقصر، وقد كانت تعاني من تناقض في المشاعر جعل نظرات عينيها غير مستقرة على وجه ذلك العائد بعد شهور غياب ولم تفلح تلك الابتسامة المصطنعة في إخفاء اضطراب قلبها، وحين قالت له: حمد الله على سلامتك يا جامع وحملت عنه حقيبته، كان يود هو لو يحتضنها ويقبلها لولا حيائه من أختها عزيزة التي تنتظر أن تسلم عليه، وأبيها راشد الذي كان يهم بالوقوف ليلقي زوج بنته بالأحضان...

كان كل من جامع وموَدّة يختلفان في المشاعر والنوايا، فبينما كانت "موَدّة" تنوي أن تطلب منه أن يطلقها، وتخشى من ثورة أبيها، ومن أن يكون ذلك القرار قد تأثر بذلك الماضي الذي بدأ يطل برأسه في حياتها منذ أن التقت بأنس منذ أيام، وإلا فلماذا تلح تلك الرغبة بقوة الآن بينما كانت ترضى بمعيشتها وحياتها معه طيلة السنوات الماضية، بل وكثيرًا ما كانت تحدث نفسها بأنها تعيش حياة مستقرة، ويملك زوجها أموالاً وفيرة ولا ينقصها سوى الذرية لكي تكون حياة مثالية، أو على الأقل هكذا تكون الحياة المثالية في نظر كثير من الناس، أما هو فقد استقر في وجدانه القرار بعدم العودة للعمل في الكويت والاستقرار في قريته مع زوجته، والسعي للعلاج خاصة بعدما سمع بتقدم الطب في علاج حالات مماثلة لحالته، ولم يتبق سوى

أن يصارح "موَدّة" بكل شيء.

جلس جامع بجوار والد زوجته وتبادلا الحديث حول أحواله وعمله، ولم يرغب جامع في أن يخبر حماه بما نواه إلا بعد أن يخبر مودة، وحين حل المساء وانفرد جامع بموَدّة في تلك الغرفة التي خصصها راشد أبو مكي لبنته وزوجها حين يبيتان في منزله، حدث نفسه بألا يتسرع في مصارحتها ويترك نفسه ليستمتع معها بليلة دافئة، بعد طول غياب، ولكنه لاحظ أنها لم تتجمل له بل بدا له أنها تخفي شيئًا تريد أن تبوح له به، وجهها المتجه لأسفل وتلك الهالات السوداء تحت عينيها تفضح الأرق وطول السهر؛ فاقترب منها، وبادرها بقوله:

ـ ما بك يا مودة؟

كان سؤالاً مفتوحًا يتيح لموَدّة أن تلقي في وجهه بكل ما عبأته له من تهم بالمسؤولية عما آلت إليه حياتها من تعاسة، كان يمكنها أن تبدأ من اليوم الذي تقدم فيه يطلب يدها، حينها لم يسألها هل تقبل به أم لا، اكتفى فقط برد الأهل، وصمتها، وكأنه نسي أو تناسى أن البنات لم يعد صمتهن تعبيرًا دائمًا عن رضاهن عن الخاطب كما في سابق السنين البعيدة، ويمكنها أيضًا أن تعدد له الليالي التي شعرت فيها بجفاف المشاعر وبرودة الفراش، والحنين لسماع صوت طفل يملأ حياتها بهجة، كان يمكنها أن تقول كل ذلك ويزيد، ولكنها لم تنطق سوى بكلمة واحدة:

ـ طلقني.

قالتها وهي تواجه عينية في إصرار وقد جفت الدموع في عينيها فبدت أكثر صرامة مما عهده بها.

تراجع للخلف وجلس على مقعد بجوار مرآة صغيرة وضعتها عزيزة لأختها مودة، ظنًا منها أن "موَدّة" سوف تحتاجها حين تتزين

لزوجها ، كان حينها يحاول أن يتمالك نفسه ويستوعب ما سمعه للتو ، صحيح أنه كان يتوقع منذ زمن أن يأتي يوم تلقي فيه "مَوَدّة" في وجهه بذلك الطلب ، ولكن أيعقل أن يسمعه اليوم وفي تلك الليلة التي قرر أن يصارحها فيها بكل شيء ، هربت دمعة متمردة من إحدى عينيه ، أزال أثرها بسرعة وقال بصوت واهن وكأنما أصاب الإجهاد أوتار صوته ، حتى من قبل أن يتكلم.

ـ تزوجنا قبل سبع سنوات وتلك أول مرة أسمع منك هذه الكلمة.

ـ تعبت يا جامع ، وكل إنسان له طاقة.

هكذا قالت وهي تقف وتتجه إلى الشرفة التي تطل على الحقول وتفتحها بشكل جزئي موارب ، وتترك نور القمر ينسكب على وجهها ، بينما هي تتحاشى النظر إلى جامع مرة أخرى ، بينما هو يستجمع شتات نفسه ويقول:

ـ لا تظني أني لا أشعر بك يا "مَوَدّة" لذا أنا قدمت اليوم وفي نيتي ألا أسافر مرة أخرى للكويت ، وأظل معك هنا.

كان لوقع تلك الكلمات صدى غريب على أذني مودة ، فقد كانت تلك أمنيتها منذ زمن حين كانت مستسلمة لما آلت إليه من مصير ، أما الآن وقد نوت التمرد وأعدت له نفسها ، فكان جوابها أشبه باستفزاز وسعى لقلب الطاولة عليه ، علها تفشل محاولة التقرب التي تعتبرها أتت بعد فوات الأوان...

ـ ليس لهذا الكلام جدوى الآن يا جامع.

بنبرة استعطاف:

ـ لعلي أتوقع ما يدور في خلدك الآن ، ولكن لتعلمي أني كنت قد نويت الليلة أن أصارحك بكل شيء ، مشكلة الإنجاب من عندي ، وسوف أسعى للعلاج من الآن ، وكما أخبرتك

لن أسافر مرة أخرى وسأظل بجانبك، وسننجب أولادًا إن شاء اللّه يملؤون علينا البيت.

تلقت "مَوَدّة" اعترافه في برود عكس عدم تفاجئها بذلك الخبر، فهي كانت تكاد توقن بأن سبب تأخر الإنجاب منه، ولا تجرؤ على التصريح بذلك، لذا فقد وجدت أنها أمام فرصة سانحة لتلقي إليه بطلب ظنت أنه سيدفعه لتطليقها، دون أن تضطر إلى خوض عناء مواجهة أخرى مع أبيها، الذي رغم شعورها بتعاطفه معها في مسألة الإنجاب، إلا أنها تعلم أيضًا أنه من ذلك النوع الذي تصيبه كلمة الطلاق بالثورة إن هي رددت في بيته، وعلى لسان ابنته الكبرى؛ لذا قالت وكأنها تتنازل وتصفح عنه:

ـ حسنًا يا جامع أنا سامحتك، لكن أنا لي طلب..

وصمتت لتتأمله وقد هب واقفًا واتجه إليها حيث تقف، وقال لها بصوت الذي أوشك على الغرق وقد أبصر طوق نجاة يطفو بالقرب منه:

ـ أمرك يا حبيبتي.

كانت تلك أول مرة تسمعه فيها يناديها بحبيبتي، وتردد داخلها صوت هامس متسائلاً: ترى لو كان ردد تلك الكلمة على مسامعها خلال السنوات الماضية، ترى أكانت لتغفر له الآن وترتمي في أحضانه وتكمل معه بقية حياتها راضية معه، وأخرست ذلك الصوت الهامس بداخلها، وقالت وقد أحاطت رقبته بيدها وقربت وجهها من وجهه وهي تقول:

ـ حسنًا لقد سامحتك على كل ما مضي، لكن لي شرط لكي نكمل حياتنا معًا...

واستطردت دون توقف: أنا أريدك أن تبيع كل أملاكك في الشيخ موسى، وتأتي لتعيش معي هنا في السلامية.

كانـت تلك الكلمات كافية بأن تثير الإضراب في نفسـه، وتجعله يفلت من بين يديها ليعود جالسًـا إلى المقعد الذي تركه منذ قليل، وقال في شبه رجاء:

ـ أنـت تعرفين أن الشـيخ موسـى قريتي، وأنا لا أسـتطيع أن أترك مالي وأرضي وآتي للإقامة في السلامية قرية زوجتي...

بوجه كسته التجهم، وقد شعرت في قرارة نفسها بأنه وصل إلى المرحلة التي تبتغيها:

ـ إذن طلقني.

هكذا سمع تلك الكلمة للمرة الثانية في تلك الليلة فنكس رأسـه وكأنما يبحث فـي أرضية الغرفة عن حـل لتلك المعضلة التي تواجهه، واستمر على هذا الوضع لعدة ثوان شعرت بها "مَوَدّة" كأنها أيام وأسـابيع فقد كانت تنتظر أن يرفع رأسه ليقول لها: أنـت طالق، فإذا به ينهـض واقفًا ويتجه إليهـا ليحتويها بين يديه وهو يقول:

ـ فليكن سأنفذ كل طلباتك يا حبيبتي.

***

١٥

الشيخ موسى

حين رجع إلى بيته في الشيخ موسي دون أن تصحبه "مَوَدّة" تأمل أرجاء المكان وكأنه يراه لأول مرة، كان منزلاً فسيحًا حرص منذ جرت الأموال في يده أن يجعله أكثر ارتفاعًا وأبهة من جميع منازل القرية، والحقيقة أن ما فعله جامع لم يكن وحده يحرص عليه بل إن معظم من سافروا للعمل في بلاد النفط وجلبوا الأموال قد بالغوا في إظهار ترفهم، رغم أن بعضهم يقتر على نفسه في الغربة لكي يوفر ريالاً أو دينارًا أكثر، وحين يعودون تتبدل الحال وتطفو الأموال ومعها مظاهر الترف المبالغ فيها لذا لم يكن غريبًا أن تتفاوت الطبقات في القرية فترى البيت المصنوع من الطوب اللبن البسيط يجاور عمارة شاهقة أو قصرًا منيفًا، واليوم حين نوى جامع أن يخبر عمه غالب بقراره بيع كل أملاكه والانتقال للعيش في السلامية مع زوجته لم يكن يعلم كيف ستكون ردة فعل عمه وإن كان قد وطن نفسه على أن يمضي فيما نواه للنهاية وليكن ما يكون.

انتهى من حزم أمتعته بنفسه لأن "مَوَدّة" طلبت ألا تأتي معه لكي لا يحملها أهله مسؤولية ما هو مقدم عليه، ثم خرج قاصدًا بيت عمه غالب الذي لا يبعد كثيرًا عن بيته، فأبصر عمه خارج الدار جالسًا على الدكة الخشبية وقد أمسك النرجيلة يسحب منها أنفاسًا عميقة ثم يرسلها في الهواء لتصنع فوق رأسه غيومًا صغيرة سرعان ما يبددها الهواء، كان مظهره يوحي بالثقة والاطمئنان ليومه وغده، وكان جامع في شك من أمره ويومه وغده واستقبله

عمه هاشًا وتقدم نحوه وقد ملأت نظراته الدهشة فغالب لم يكن يعلم بوصول ابن أخيه من الكويت وذهابه إلى السلامية أولاً...

وقابل جامع عيني عمه المندهشتين بابتسامة عريضة مصطنعة وذراعين منفرجين متأهبان لتلقي أحضان العم الذي ما إن انتهى من طقس الترحيب حتى دعاه للدخول إلى البيت، وفي الداخل جلسا في الردهة الواسعة وعلى الحائط المقابل للمقعد الذي كان يجلس عليه جامع اصطدمت عيناه بالصورة العتيقة المعلقة على الجدار، كانت صورة جده همام منتصبًا وقد وضع يديه على كتفي أبيه صالح وعمه غالب اللذين كانا صغيرين حينها، لم يدم تحديقه طويلاً في تلك الصورة فقد انتبه على صوت عمه ينادي بنته كريمة لتحضر طعام الغداء وفكر جامع هل عليه أن يبادر بفتح الموضوع الذي جاء من أجله أم ينتظر حتى يفرغ من الغداء ويطيل معه اللقاء ويلقي إليه بالخبر قطعة قطعة، كانت تلك الأفكار تدور في رأس جامع بينما عمه غالب يتحدث إليه بحديث لم يكن قد انتبه إليه جيدًا، وإن كان أذنيه قد التقطت كلمات مثل الغلاء وأسعار السماد وأشياء أخرى مشابهة، واجتاحته رغبة مفاجئة في أن ينهي الأمر سريعًا... فقال وقد التفت إلى عمه غالب وحدق في وجهه وكأنه يود أن يسجل ملامح وتعبيرات وجه عمه عندما يقذف مسامعه الخبر:

ـ عمي أنا قررت بيع البيت والأرض ورأيت أنك أولى بالشراء من أي مشتر آخر.

كان جامع يعلم أن عمه غالب لا يمتلك ما يشتري به، كما أن غالب يعلم ذلك، وبهت الرجل وظن جامع أن عمه سينفجر فيه صائحًا ومعترضًا، ولكنه صمت وكأن المفاجأة قد عقدت لسانه ثم أرخي ملامحه وخرجت كلماته وكأنها لا تعبر عن

مكنون صدره:

ـ أنـت يا جامع تعلم أن عمك لا يملك ما يشـتري به، وعمومًا هذه أرضك وأنت حر فيها...

واستطرد متسائلاً:

ـ لكن هل يا ترى فكرت جيدًا فيما ستفعله بعد بيع الأرض؟

حيـن نطق تلك الجملة كانت كريمة تدلف إلى الردهة وقد حملت بين يديها صينية الطعام، وعند ذاك لم ينتظر غالب إجابة عن سـؤاله من ابن أخيه بل دعاه إلى الطعام واستجاب جامع وهو يشـعر بثقـل يجثـم على صـدره ورغبة فـي إنهاء الأمـر والمغادرة سـريعًا، بينما عادت بنته كريمة إلى غرفتها، كريمة تلك التي كان عمه غالب يرغب في تزويجها إياه ليضمن الاسـتحواذ عليه وعلى ماله قبل أن يدفعه جامع ليذهب معه إلى السـلامية لخطبة "مـوَدّة" بنت راشـد أبو مكي، وبالفعل لم يـدم الأمر طويلاً فبعد لقيمات قليلة دفعها في فمه... قال جامع:

ـ بعدما أبيع كل شـيء سوف أذهب للسلامية وأقيم فيها مع زوجتي.

هنا انعقـد حاجبي غالب وترك طعامه ونظر إلى جامع بعينين اشـتعل الغضـب فيهمـا: تعني أنك تريـد ترك أهلـك وبيع أرضك وتذهب خلف زوجتك في قريتها لتكون تحت أمرها وأمر أهلها.

عندئذ لم يتمالك جامع نفسه وهب واقفًا ثم قال محتدًا:

ـ يا عمي أنا رجل حر وليس لأحد أن يتحكم في ويمنعني وأنا أعـرف أن مبتغاك الأرض وليـس جامع ابن أخيك، ولعلمك لقـد كنـت أنـوي أن اشـترط على مـن يشـتري الأرض أن يتركك عليها، لكن بعد كلامك هذا سوف أبيع للغريب وهو وشأنه معك...

هكذا كان يتحدث جامع وهو واقف على قدميه بينما عمه غالب جالسًا مبهوتًا لا يستطيع الرد، وتركه جامع على هذا الحال واندفع خارجًا بينما لمح كريمة واقفة عند باب غرفتها وملامح الذعر على محياها ولم يستمر بقاء جامع في قريته الشيخ موسى كثيرًا بعد مغادرته بيت عمه فقد كان معدًا كل شيء قبل وصوله فاتفق عبر الهاتف مع المشتري وفور حصوله على المال قرر ألا يبيت ليلة أخرى في الشيخ موسى وليذهب مباشرة رغم البرودة القارصة إلى السلامية وليبدأ حياة جديدة مع "مَوَدّة" تكون بدايتها رحلة علاج علها تنجح ويكون له ذرية يملؤون حياته بهجة ولا يظل يصارع الحياة وحيدًا، هكذا كان جامع يفتح قلبه للدنيا وهو لا يعلم أنه سيغادرها بعد ساعة واحدة برصاصة غادرة تأتيه على حين غرة فيودع الحياة على أثرها.

***

١٦

البحث عن جناحي طائر

مرت اليوم سبعة أيام منذ ألقوه في هذا المكان، لم يتغير شيء ولم تلح بارقة أمل في العثور على القاتل الحقيقي، الأحداث المتلاحقة تدهمه كطوفان هادر لا يملك مقاومته ولو بكلمات حزينة يرثي بها نفسه أو إيماءة غضب من عينيه تنبأ بأن هناك بقية من إنسان حي فقط الأحلام كانت تخرج به من تلك الدائرة الجهنمية يرى نفسه فيها وقد نبت له جناحي طائر خرافي حطم بها تلك القضبان وخرج للفضاء ثم هبط في الميدان الكبير تنفس عبير الحرية، حنجرته عادت أقوى مما كانت دوى صوته عاليًا ولم يخشَ شيئًا ولكن كيف يواجه ضعفه خارج تلك الأحلام وكيف يقوي على العتمة التي تحيطه من حوله وفي داخله حزن كثيرًا لتخيله مشهد "مَوَدّة" وهي محاصرة بين جدران زنزانة كئيبة كتلك التي يقبع فيها الآن...

وتردد صوت داخله متسائلاً:

ـ هل يمكن لمثل ذات الوجه الطفولي والعينين العسليتين الناعستين أن تقتل أو تحرض على القتل، وجاءت الإجابة ترتدي ثوب المنطق لتقول: ولمَ لا، حتى وإن كنت أنا بريئًا من تهمة تحريضها إياي على قتل زوجها فهذا لا يمنع أن تكون الجريمة تمت بيد شخص آخر استأجرته أو كانت تعرفه خلال السنوات التي مضت وكنت خلالها في القاهرة لا أدري شيئًا عما يحدث في السلامية، ونفض ذلك الخاطر عنه سريعًا وارتكن لفرضية أن يكون القاتل غالب أو أي

شخص آخر ليس لموَدّة علاقة به...

وقرر أن يهرب من حيرة الفؤاد وعواصف الأسئلة إلى التفكير في أمر الزائر الذي ينتظره في غرفة المأمور، ما الذي جاء به؟ يتذكر آخر مرة رآه فيها، كانت في مقهي «زهرة البستان» في القاهرة، كان بصحبة مجموعة من شباب الأدباء والصحفيين، لم تكن أحاديث الأدب والثقافة هي ما جمعتهم تلك الليلة، بل ما كانوا يرتبون له من مظاهرات رفضًا لاتفاقية ترسيم الحدود البحرية التي تخرج جزيرتي تيران وصنافير من حضن الحدود المصرية، كان "أنس" يشاهد ويسمع تلك الوجوه المحتقنة بالغضب وتلك الألسنة الملتهبة بالحماسة، لطفي كان هو الأعلى صوتًا، تحدث عن ضرورة التصدي لما يحدث وأن دور الأدباء والمثقفين يجب أن يتجاوز الكلام إلى قيادة الفعل وكان "أنس" صامتًا لا يدري ما يقول، فكر أن يخبرهم بأنه ربما هناك أشياء لا يعلمونها عن تلك الاتفاقية، ولكنه في الحقيقة كان يعلم أنه بذلك يخادع نفسه ويصبح أشبه بذلك الصحفي الذي جاهد لكي يثبت أن الجزيرتين ليستا مصريتين، فيهمُّ بأن يصارحهم بخوفه من عواقب المواجهة فيردعه ذلك الصوت الحر الذي برغم كل شيء يرفرف داخله ويثنيه عن إعلان جبنه أمام تلك القلوب المتحفزة، فما كان منه إلا أن تصنع التعب المفاجئ وغادر المكان ليعلم في اليوم التالي نبأ القبض عليهم بتهمة محاولة تكدير السلم العام، وينفض "أنس" فيض الذكريات عن رأسه ويقوم واقفًا ليغادر السرير ذا الدورين الذي كان يجلس عليه ويتحرك في الغرفة وسط نظرات تلك العيون التي تشاركه محبسه وينظر إلى الباب الحديدي للغرفة متأملا ذلك الشعاع الواهن المتسلل من بين القضبان السميكة التي تكون أعلاه ويتساءل: ما الذي أتى بك يا لطفي طالبًا زيارتي في محبسي وأنا الذي لم أتهم بقيادة مظاهرة

ضد التفريط، واتهمت بجريمة قتل زوج مسكين.

وتتوقف الأسئلة عن مهاجمته بسماعه لصوت أقدام تقترب من باب الزنزانة ثم يصله صوت الشاويش عيسوي ينادي باسمه قبل أن يصدر الباب الحديدي ذلك الصرير الحديدي الذي يصاحب فتحه ثم ينتصب الشاويش حاجبًا ضوء الخارج بجسده وهو يدعو "أنس" للذهاب معه إلى مكتب المأمور لمقابلة الزائر الذي حضر له من القاهرة.

كان لطفي شابًا في أواخر العشرينيات من عمره، بدانته ظاهرة وروحه الثائرة تكاد تشع من عينيه الواسعتين اللتين تتوسطان وجهه الأبيض المستدير، ما إن رأي "أنس" حتى هب واقفًا وغادر المقعد الذي كان يجلس عليه متحفزًا وتقدم إليه ليصافحه بحرارة ويربت على كتفه بود، كانت عينا "أنس" حائرتين تعبران عما يجول في داخله، وعند جلوسهما متقابلين قال لطفي وقد شعر بارتباك صديقه:

ـ كيف أنت يا أنس، هون عليك كلنا ثقة في براءتك.

أنس بنظرة حزينة ممتنة:

ـ أنت يا لطفي صديق مخلص، ولكن يا ترى ما رأي بقية الصحبة، يا ترى رأيهم مثل رأيك؟

كان سؤال "أنس" في الظاهر سهلاً ومباشرًا ولكنه في حقيقة الأمر سؤال صعب ومعقد بالنسبة للطفي، فهو في هذه اللحظة لا يحب أن يكذب على "أنس" ويقول له إنهم جميعًا مثله، كما انه يستكثر أن يدهم قلب "أنس" وهو في محنته بإخباره بأنهم لم يستبعدوا أن يفعلها بل إن بعضهم ارتاب في الطريقة التي غادر بها ذلك الاجتماع في تلك الليلة قبيل القبض عليهم ولم يستبعدوا أن يكون له علاقة بالأمر لولا دفاع لطفي المستميت

عنه وتذكيرهم بمعرفته العميقة بأنس وإن كاتب مثله لا يمكن أن يفعل ذلك، كل تلك الأفكار كانت تدور في عقل لطفي في لحظته القصيرة تلك والتي أعقبها بمحاولة الهروب بعينيه من عيني "أنس" المتوسلتين إلى تأمل غرفة المأمور الواسعة، صورة رئيس الجمهورية تعلو الجدار، وعلم الدولة خلف المكتب العريض يجاور مقعد المأمور الخالي، والمزهريات الأنيقة تتوزع بعناية في أركان الغرفة حتى لكأنك تشعر بأنك انفصلت عن أجواء السجن خارج تلك الحجرة والتي تؤكد قدمه وسوء مرافقه، ولكن ما تلبث أن ترتد عينا لطفي لتواجه "أنس" من جديد فيرد عليه محاولاً الابتعاد بالإجابة عن سؤاله:

ـ إن شاء الله تظهر براءتك قريبًا، وكل محبيك وأولهم أصدقاؤك سوف يحتفلون بك...

ثم استطرد وهو يعدل نظارته الطبية إلى أعلى أنفه:

ـ هل تذكر يا "أنس" أيام التحرير.

أنس وكأن لطفي فتح له نافذة على الفضاء الرحب تنفس من خلالها عبير الحرية وتدفقت عبرها ذكريات ميدان التحرير من قلبه وعقله إلى لسانه:

ـ أذكر جيدًا وكيف لي أن أنسى الهتافات التي صدحت بها حناجرنا، عيش، حرية، عدالة اجتماعية.

لطفي وقد شعر بالسعادة لأنه استطاع إخراج "أنس" من أجواء السجن إلى عالم الذكريات التي يعتز بها:

ـ كنا نستلهم من كلماتك الحماسة والإصرار.

أنس بلهجة حزينة:

ـ كنا نعرف ما نريده، وكانت الأحلام تداعبنا.

لطفي: ولكن النهاية لم تكن كما توقعنا وأردنا.

أنس: كنا حسني النية بينما لم نفطن إلى المتربصين وراكبي الموجة؛ وضاعت الثورة بينهما.

لطفي بأسى: راكبو الموجة أضاعوا الثورة والمتربصين عادوا أقوى مما كانوا.

أنس وقد سرح بأفكاره بعيدًا:

ـ هل تظن أن ما أنا فيه يمكن أن يكون له علاقة بموقفي السابق من ثورة يناير.

لطفي بلهجة واثقة:

ـ بالطبع لا يا صديقي فبالرغم من أن برامج "التوك شو" قد اتخذت من تهمتك وسيلة لشغل الرأي العام في الأيام الماضية إلا أنك في الحقيقة تعلم أنه في الفترة الأخيرة لم يكن لك موقف واضح من الأحداث وحتى في قضية الجزيرتين لم يصدر عنك أي تصريح يفهم منه أنك مع أو ضد، ثم إنك غادرت القاهرة بعد القبض علينا وأغلقت هاتفك، فلم إذن يزج باسمك في قضية كتلك.

أنس وكأن لطفي وضعه أمام مرآة سحرية عكست تفاصيل روحه الحيرى وضميره القلق:

ـ صدقت يا لطفي اعذرني فأنا أحاول أن أستبصر كل الاحتمالات حتى البعيدة منها.

لطفي بابتسامة مصطنعة يحاول بها أن يرفع معنويات أنس:

ـ لا عليك يا أنس، شدة وتزول...

وفجأة تناهى إلى سمعهما صوت الباب وهو يفتح ثم يظهر من خلاله الشاويش عيسوي الذي أخبرهما بانتهاء مدة الزيارة.

أنس وقد أدرك أن جلسته مع صديقه طالت دون منغص وبأريحية حتى إن المأمور سمح لهما بالجلوس في مكتبه أثناء مروره على السجن فقال:

ـ يبدو يا لطفي أنك ذو نفوذ ليتركوا لنا مدة زيارة طويلة كهذه.

لطفي بابتسامته الساخرة التي يألفها أنس:

ـ لا يا صديقي كل ما في الأمر أنني هنا لست في زيارة شخصية فقد أقنعت رئيس التحرير بضرورة عمل لقاء صحفي معك باعتبارك نجم فضائيات وصحف هذه الأيام، والصحيفة التي أعمل بها هي من سهلت كل الإجراءات، وكما ترى يبدو أن رئيس التحرير هو من يمتلك نفوذ حقيقي.

أنس مداعبًا: أنت هكذا مراوغ دائمًا تستطيع الوصول لهدفك بأبسط الطرق.

لطفي وقد نهض واقفًا ومودعًا:

ـ كان من الضروري أن أراك وأطمئن عليك بأي وسيلة.

خرج الاثنان من الغرفة كل إلى وجهته، "أنس" إلى محبسه برفقة الشاويش عيسوي، ولطفي إلى خارج السجن حيث تنتظره السيارة التي سوف تقله إلى محطة القطار ليعود إلى القاهرة التي تركها تموج في الأحاديث الهامسة عما جرى في الشرق وخطر العطش القادم من الجنوب والإرهاب الذي بات يضرب بكل خسة في كل مكان.

***

١٧

سير التحقيقات

الوقت صباحًا...

وكيل النيابة أحمد مهدي دخل غرفته وتبعه كمال الساعي بفنجان القهوة الذي يبدأ به يوم عمله، كل شيء يبدو عاديًا وطبيعيًا، غير أن أحمد مهدي ربما بدا أكثر اهتمامًا بذلك الملف الذي أخرجه من أحد الأدراج وأخذ يقلب في ورقه بعناية...

كان الملف يحوي تفاصيل التحقيقات في قضية مقتل جامع صالح...

كان المتهمون الثلاثة قد أنكروا صلاتهم بالجريمة ورغم ذلك لم يقدموا ثمة أي دليل يدعم موقفهم، غير أن تطورا لم يكن متوقعًا حدث في القضية وكان السبب في ذلك هو الانتهاء من تفريغ سجل المكالمات التي أجراها جامع يوم مقتله...

وكانت المفاجأة أن جامع أجرى اتصالاً بشخص ما يُدعى حسن، المكالمة كانت قصيرة لم تزيد عن بضع جمل قال فيها جامع للشخص الآخر إنه سينتظره عند كوبري قرية الشيخ موسى الذي يعبر الترعة ليبدأ بعدها الطريق المؤدي في اتجاهين اتجاه ناحية مدينة قنا في الجنوب واتجاه آخر يؤدي إلى قرية السلامية في الشمال...

وهكذا بدا أن هناك متهمًا رابعًا سوف ينضم لقائمة المتهمين المشتبه بهم في الضلوع في قتل جامع صالح، ولم يضيع أحمد مهدي وقتًا فسارع بالاتصال برئيس المباحث ليعرف منه إن كانوا

قد تمكنوا من القبض على الشخص الذي يدعى حسن وأجابه رئيس المباحث بأنهم فقط علموا من بياناته بشركة المحمول أنه يعمل سائق تاكسي، ولم يتمكنوا للآن من القبض عليه...

وهكذا أضيف إلى المتهمين الثلاثة متهم رابع تسعى الشرطة في أثره وتنقب عنه في كل مكان يحتمل أن يلجأ إليه.

***

١٨

لقـــــاء

ترى ما الذي جرى وما الذي سيكون، الجسد يزداد نحولاً وذبولاً والروح ترهقها الهواجس والأفكار، والمشاعر تتجاذبها ذكريات الماضي وثقل الواقع، تحاول تخيّل حال أبيها راشد وأختها عزيزة والمكية جميعًا بعد أن شاهدوا ابنتهم يُلقى القبض عليها بتهمة الضلوع في جريمة قتل زوجها...

تُرى هل حقًا يؤمنون ببراءتها أم يخططون هم لقتلها قبل أن يحكم القاضي...

ويا ترى هل وحدت تلك المصيبة بين (المكية) و(الجبالية) أم زادتهم تفرقًا...

تتذكر جامع ونهايته...

تُرى لو كانوا رضوا بأنس زوجًا... أكنت سأعيش معه سعيدة أم كانت ستتبدل الأحوال عندما يعلو نجمه وهل حقًا كنت أحبه أم هي الأشياء التي تنزع منا عنوة تظل هي الأشهى وهي الأجمل في العين والنفس...

وهتف صوت داخلي غطى على تلك الأصوات التي تتسرب من النافذة لتنبئ عن حياة صاخبة تستعر في الشارع الخلفي للحبس: وذلك المسكين ما ذنبه أن يعيش في وهم الإخلاص لسنين...

ونشبت في باطنها تلك المعركة بين الشخصيتين اللتين تتصارعان منذ تلك الحادثة التي جعلتها تعيد حساباتها في حياتها الماضية... فردّ الصوت الثاني بثقة: جامع أيضًا ظلمني أو ليس هو

من خدعني لسنين وهو يوهمني أنه قادر على الإنجاب، ولكن الآن لم يعد معنى لنكأ الجروح والاستمتاع بألمها، بهذا المنطق...

أسكتت الصوتين بداخلها لتصغي لذلك الصوت الأجش الذي سمعته يهتف باسمها خارج غرفة الحبس، كان أحد جنود الحراسة يستدعيها لزيارة لم تكن تتوقعها، فتح باب الزنزانة وخرجت وسط نظرات الحبيسات معها واللاتي دأبن على الابتعاد عنها وعدم محاولة التقرب منها، أوصلها الجندي إلى غرفة الضابط وطرق طرقات خفيفة ثم سحبها للداخل، فأبصرت أباها وقد تضاعف عمره وما إن وقع بصره عليها حتى بادر واقفًا وتقدم منها ليضمها ويعتصرها في حضنه وكأنه يبغي أن يسمع دقات قلبها أو ربما هو شعور متأخر بالذنب عما آل إليه مصيرها بعد سنوات من زواجها بجامع وهمت دمعة مترقرقة في عيني "موَدّة" بالانحدار فكظمتها علها تظهر متماسكة لذلك الشيخ...

وكادت وهي تنسل من بين جناحيه أن تبوح له قائلة: هون عليك يا أبي فأنت وأمي لا تتحملان وزر تعاستي بل أنا من صنع ذلك طوعًا واختيارًا كنت بالفعل أحلم بترف العيش مع جامع، وربما كان بإمكاني أن أدفعه ليصحبني للأطباء لأسمع بنفسي حقيقة حالته الصحية، ولكني كنت أتغاضى وأغض الطرف وأظهر أمامكم بمظهر المغلوبة على أمرها وهو أيضًا كان مؤثرًا نفسه لم تأتِه الشجاعة كي يصارحني بحقيقة مرضه إلا متأخرًا أنا لا ألوم عليه فأنا مثله كنت أريد كل شيء وألا أتنازل عن أي شيء كان ينقصني الشجاعة في أن أقول لا في الوقت المناسب ولكني لم أقلها.

تمنت أن تبوح بكل ذلك ولكنها كالعادة ظلت أفكار حبيسة جدران جسدها ولم تزد عن الامتثال لأوامر الضابط

الذي أشـار بيده لهما ليجلسـا على مقعدين خشبيان يحتلان أحد أركان الغرفة الواسعة، شكرته بإيماءة من رأسها ونظرة امتنان من عيناها، وجلسـت قبالة أبيهـا، العمامة بيضاء ناصعة ملفوفة حول رأسه بإحكام والجلباب البلدي ذو الأكمام الواسعة مسوى بالمكواة... إنها عزيزة لا تخرجه من الدار إلا في كامل هيبته، نظرت في عينه مباشرة وقالت:

يا أبي هل تصدق أن ابنتك تقتل زوجها...

فرد بصرامة:

ـ لا ولو كنت أشك فقط لما أتيت إليك ولكن الأمر يا بنتي معقد...

ـ الحمد للّه... (قالتها "مودّة" بارتياح).

قال أبوها وما زالت عيناه معلقة بوجهها:

ـ لقد وكّلنا نحن و(الجبالية) محاميًا كبيرًا للدفاع عنكما...

بدت الدهشة على وجه "مودّة" فعلل قائلاً:

ـ الأمر لا يخص المكيّة وسـمعتهم وحدهم... الجبالية أيضًا مثلنا بل والسلامية جميعًا...

وأكمل: أمـس ذهبنـا للنائـب عبـد المعـز نطلب استشـارته وإمدادنـا بمحـام من طرفـه... ولكنه خذلنـا... وقال إن اقترابه من القضية بأي شـكل سيسيء للحزب... أظهرنا امتعاضنا وذكّرناه بانتمائه للسلامية وحاجة حزبـه لأصـوات أهلها، فرد علينا ملمحًـا بأنه لم يعد في حاجة إلى أصوات أو مصوتين...

فهمنا الرسالة وأدركنا أن علينا أن نعتمد على أنفسنا...

كانت "مودّة" تنصت لأبيها بكل حواسها وتتابع تعبيرات وجهه

وكأنها تراه لأول مرة ولعل شعورها لم يكن كاذبًا ، وتساءلت في داخلها هل تغير المحن الناس هكذا ، كانت منذ نصف ساعة تتقاذفها الهواجس حيال أبيها وعائلتها وكانت تكاد تشعر أنهم سيقتلونها حتى قبل أن يصدر القاضي حكمه والآن يخبرها أبوها بأنه يثق في براءتها وأن السلامية غدت على قلب رجل واحد...

عجيب أيضًا أمرهم أهل السلامية توحدهم المحن لكن ما أن ينتصروا عليها حتى يعودوا سيرتهم الأولى تفرقهم العصبية العائلية وأهواء السياسة...

أفاقت "مَوَدّة" من أفكارها تلك على صوت الضابط يخبرهما بانتهاء مدة الزيارة ووجوب عودتها للحبس... امتثل راشد ونظرة الحزن تملأ عينيه... بينما تقدم الجندي الذي أتى بمَوَدّة من قبل ليدفعها إلى محبسها ولكنها تلك المرة دخلت بوجه غير الذي خرجت به قبل ما يقرب من ساعة شعرت بذلك في قلبها قبل أن تعكسه نظرات السجينات معها في الغرفة ، والتي كانت عيونهن ترمقنها بنظرات ملؤها الدهشة وباتت ليلتها تلك يحدوها الأمل في ظهور الحقيقة وخوف جاثم من أن تطول أيام بقائها في هذا المكان.

***

١٩

عشرة أيام خلف القضبان

اليوم يكون قد أكمل عشرة أيام في ذلك المكان الكئيب، في العموم هو لا يثقله مرور الوقت فقد أثقله هم آخر فشغله عن تتابع الأيام والغريب أيضًا أنه جعله في غفلة عن تتبع سير قضية مقتل ابن أخيه والتي يقبع هو الآن بسببها بين تلك الجدران الأربعة ولم يهتم بسير القضية ومعرفة هوية القاتل وهو يراه رأي العين كلما نظر في صورة وجهه المنعكسة على سطح الكوب المعدني والذي كان في أصله علبة سمن ميري جرى تهذيب حوافها لتتحول لإناء للشرب ومرآة سيئة تفي بالغرض عند الضرورة ولعل ذلك الكوز الضعيف وجوفه اللامع كان هو البداية الحقيقية لذلك الشعور المأساوي الذي يحاصره الآن ويضرب في أركانه بمعول الندم...

كانت الليلة الثالثة له في الحبس لا يتذكر بالضبط كم مضى من الليل حين فتح عينيه بتململ وهو ما يزال بين النوم واليقظة وقد شعر بجفاف حلقه وظمأ كبده فتحركت يده تلقائيًا لتمسك بذلك الكوز الملقى بجواره في إهمال ورفعه إلى فمه في تكاسل سرعان ما تحول إلى فزع حين أبصر وجه جامع يطل عليه من ذلك الجوف اللامع، كانت عينا جامع تلمعان بالغضب وخيط من الدماء يندفع من مقدمة جبهته فيصبغ الماء باللون الأحمر القاني...

كان مشهدًا مفزعًا تنبهت له كل حواس غالب ورغم ذلك

ساوره شك في أن كل ما رآه ليس سوى جزء من حلم ينغص عليه نومه مما دفعه لأن يستوي جالسًا على فراشه الخشن وينكمش على نفسه جالسًا القرفصاء مسندًا ظهره للحائط وينظر حوله متأملاً السجناء الغارقين في النوم بينما خيوط الضوء الهزيلة التي تمكنت من اختراق طبقات الأتربة التي كبلت المصباح الهزيل المعلق في سقف غرفة الحبس ما تزال مسلطة على كوز الماء لتذكره بأنه في كامل وعيه ويقظته وليس كما تمنى في حلم عابر سيصحو منه بعد قليل ويستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم...

وحين وضع رأسه بين قدميه هاجمته الأسئلة كقطيع ذئاب انفرد بكبش ضعيف ضال، ترى أعينا جامع الغاضبتان علامة على رغبة ميت في العودة للانتقام، تلك أوهام يا غالب... الموتى لا يعودون إلى عالمنا الشقي مهما كانت الأسباب، وإن عاد وكسر الحواجز أتراه يشرع سيف انتقامه في وجهي أنا، ولمَ لا... ألم أشعر أنني القاتل الحقيقي منذ طار إليّ الخبر في ذلك الصباح الماطر، ولكني لم أفعلها ولا أعلم من هو فاعلها، لدغ ضميره هذا السؤال فرفع رأسه من بين قدميه وقد زاد إحساسه بالعطش فمد يده ثانية وأمسك الكوز وقربه منه في بطء المرتاب وحين نظر في قاعه واطمئن أنه لا يوجد سوى الماء الشفاف شرب بنهم وكاد يعود لنومه مقنعًا نفسه بأن ما شاهده في البدء لم يكن سوى أوهام وخيالات ولكن سواء أكان حقيقة أم خيال فإن ما جرى الليلة قد جعله يستعيد ذكرى ما جرى قبيل مقتل ابن أخيه ويقلبه على كل الوجوه ويجعل من نفسه القاضي والمتهم.

كانت بداية اليوم المشؤوم لا تنبئ بنهايته، أخبروني في الصباح أن المياه بدأت تتدفق إلى الترعة بعد طول انقطاع فتفاءلت خيرًا وأسرعت لأروي الأرض التي جف ضرعها وكاد العطش يفتك بها وقبيل العصر رجعت إلى البيت، لم أكن قد شددت إلا

بضـع أنفاس من النرجيلة حين رأيته لم أكن قبلها أعلم بأنه عاد من سفره... وها هو ذا ابن أخي قادمًا نحوي معلنًا وصوله، كنت أعتقد أنه جاء يسلم علي ويسألني عن أحوالي فإذا به يخبرني بأنه جاء ليبيع أرضه وأملاكه...

حينها أيقنت أن ابن أخي ما جاء إلا ليطعنني ليس في ظهري بل في وجهي ودون أن أستطيع أن أرده، ربما يكون هذا هو المبرر الذي أقنعت به نفسي بعد أن غادر منزلي حانقًا وغادرت أنا بعده أكثر حنقًا متجهًا كالمسير دون وعي إلى ذلك القاتل المحترف الـذي ما كنت أظن يومًا أن ألجأ إليه لأستأجره ولقتل من ! ابن أخي، وبعد ذلك أزعم أني بريء من دم جامع، كلا بل أنا القاتل حتـى ولو لم يظفر القاتل الأجيـر بابن أخي لأنه لم يبِت في منزله تلك الليلة وغادر متعجلاً إلى قرية زوجته السـلامية فظفر به آخر لا أعلمه...

أنـا القاتل حتى لـو برأتني الدنيا كلهـا، وهكذا من البقعة السـوداء في ذاكرته تخرج أفاعـي الذكريات تتلوى أمام عينيه ثم تسـعى بين السجناء النيام ثم تتحول فجأة إلى خفافيش طائرة تملأ سقف غرفة الحبس فيندهش لاستغراق المساجين في النوم رغـم ما يجري في الغرفة ويجبر نفسـه علـى أن تقتنع بأن ما يراه ليس سوى هذيان الندم ثم يعود إلى رقاده ويغلق عينيه رغمًا عنهما.

***

٢٠

القــاتل

وقفتــه غيــر متزنــة وملامح الإرهــاق تعلو وجهــه وكأنه قادم مــن ســفر بعيــد ، كان رئيس المباحــث قد أخبر وكيــل النيابة بأنهم تمكنوا صدفة من القبض عليه حينما داهموا أحد الفنادق الرخيصة بمدينة قنا ، وقد كان هذا من حسن حظهم وسوء حظه فقد كان يستعد للمغادرة لمحطة القطار ، كان سبب المداهمة في الأساس من أجل القبض على أحد صغار تجار المخدرات والذي شوهد يتسلل إلى الفندق ، قُبض على تاجر المخدرات وعلى حسن الذي ارتبك حين رأى القوة تداهم المكان وهو يحمل حقيبته في طريقه للخروج ، لم يقاوم بل بدا أنه بشكل أو آخر كان يتوقع أن يسـقط في أيدي الشـرطة ، بل بدا وللغرابة أنه ارتاح لذلك ، ظهر ذلك حين أجرينا معه تحقيق أولي سرد فيه حل اللغز الذي حيّرنا فــي الأيام الماضية ، ســوف تكون نســخة التحقيــق في مكتب سعادتك حين يُعرض المتهم عليك صباحًا .

هذا ما جرى أمس واليوم صباحًا ...

أيقــن أحمد مهدي وكيل النيابــة أن رئيس المباحث لم يبالغ في وصفه لحالة السائق حسن ، فملامح الاستسلام أمامه لا تحتاج إلى تفسير ، جرت عيناه متفحصة الأوراق التي بين يديه فندت عنه ابتســامة ممزوجة بالدهشــة فإن صح ما دُوّن بها فإن التحقيق من البداية كان يســير في الاتجــاه الخاطئ ، ولكن ألم تكن كل المعطيــات والظروف المحيطــة بالقتيل تجعله ينحو ذلك المنحى

ويشك في تلك الدائرة المحيطة بالضحية، ولكن على أي حال فإن عملنا يجسد الحياة بكل تناقضاتها وهو لا يخلو من مفاجآت...

هكذا كان يفكر أحمد مهدي قبل أن يبدأ تحقيقه مع السائق حسن.

ـ اسمك وسنك ومهنتك؟

ـ حسن شاكر محمود، عمري ٣٣ سنة، أعمل سائق تاكسي.

ـ حسن... أمس أُلقي القبض عليك وأجرى رئيس المباحث معك تحقيقًا أوليًا، هل تمت عيك ضغوط أو تم تعذيبك بشكل بدني أو نفسي لتقول ما قلت؟

ـ لا يا بيه هو كان يسأل وأنا كنت أجيب.

حسنًا أعد عليّ قص ما جرى بالتفصيل وكأنك لم تقله سابقًا.

ـ البداية كانت توصيلة بالتاكسي من مطار الأقصر إلى قرية السلامية، لم أكن حينها أعلم أن تلك التوصيلة ستكون خيط البداية لتلك الوقفة البائسة التي أقفها الآن، تعرفت على الراكب، اسمه جامع صالح ويعمل بالكويت، تحدثت معه عن صعوبات الحياة ووعدني إن وجد فرصة عمل تناسبني فسوف ينتشلني من الظروف الصعبة التي تحاصرني، تبادلنا أرقام الهواتف وأوصلته إلى ما كنت أظن أنه منزله فقد علمت فيما بعد أنه بيت حماه، ومضى يوم كنت قد كدت أن أنسى الأمر حتى أقبلت الليلة المشؤومة، كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً حين رن هاتفي وظهر على شاشته اسم جامع صالح وسارعت بالرد عليه فأخبرني بأنه ينتظرني أمام كوبري الشيخ موسى لأوصله إلى قرية السلامية ووعدني بالسخاء في الأجر فأسرعت إليه وليس في نيتي أي سوء، وحين انحرفت بالسيارة تاركًا

الطريق الزراعي الواسع إلى طريق ضيق ملتوٍ كأفعى تطارد فريستها كان القمر يسكب أنواره أمامي فتتكمش أمامه الأضواء المنبعثة من مصابيح السيارة وكانت أعواد القصب الكثيفة تقف على جانبي الطريق كجيوش من المردة والعفاريت تحدق بعيونها نحوي، كنت أكاد أشعر بالخوف يتسرب إلى قلبي ولكن الحاجة إلى المال كانت أطغى من كل خوف ثم إني أحمل بين طيات ملابسي مسدسًا أحاول أن أسترد به الثقة والطمأنينة، حقيقة لا أعلم إن كان سيجدي مع عفاريت الجن ولكني كنت أثق بفاعليته مع عفاريت الإنس...

وهنا أشار وكيل النيابة الذي كان منتبهًا بكل حواسه لحسن لكي يتوقف عن الاسترسال في حديثه وقال له:

ـ تقول إنك كنت تحمل معك مسدسًا، هل هذا أمر كنت معتادًا عليه أم هي المرة الأولى التي تحمل فيها السلاح وأنت متوجه لأحد الزبائن؟ كنت أحمله إذا كان هناك عمل خارج المدينة خاصة إذا كنت سأمر بمناطق نائية أو بعيدة.

ـ حسنًا أكمل...

قالها أحمد مهدي وقد امتلأ وجهه بكل ملامح اليقظة والانتباه لكل كلمة يقولها حسن.

حسن مستأنفًا ما كان من أمر تلك الليلة الفاصلة في حياته:

ـ رأيته واقفًا أعلى الجسر الذي يعبر الترعة التي تفصل قرية الشيخ موسى عن الأسفلت المؤدي لقرية السلامية، ما إن رأى السيارة حتى أقبل مسرعًا وركب بجواري، لم ألمح في عينيه الخوف فقط لاحظت عليه حرصه على الحقيبة الجلدية التي لم يتركها من يديه بعد صعوده السيارة

وجلوسه في الكرسي الأمامي بجواري، شكرني على سرعة وصولي إليه فكرت أن أذكره بوعده لي وأخبره بالضائقة المالية التي أغرق فيها ولكني أدركت أن الوقت غير مناسب وخمنت أن حالته النفسية على غير ما يرام، عرفت ذلك من ملامح وجهه وحالة الارتباك البادية عليه، فاكتفيت بالنظر أمامي ضاغطًا على دواسة الوقود لأزيد من سرعة السيارة وأصل سريعًا للسلامية، كان كل شيء يسير بشكل طبيعي إلى أن رن هاتف جامع، وكم تمنيت فيما بعد ألا يكون ذلك الاتصال قد جرى أو أن جامع أهمله ولم يرد أو أني مسني مس من الجنون وقتها وخطفت منه ذلك الهاتف وألقيته تحت إطارات السيارة كل ذلك تمنيته بعد فوات الأوان، كانت مكالمة قصيرة ولكنها كانت كافية لأن تجسد أمامي كل غوايات شياطين الإنس والجن معًا، قال فيها للطرف الآخر والذي خمنت أنها زوجته أنه باع الأرض والبيت وقادم للسلامية ومعه الأموال، هكذا تجسد أمامي حل سريع لكل مشاكلي، كنا قد وصلنا إلى المدخل الشرقي لقرية السلامية حيث الطريق غير ممهد وتكثر فيه الحفر والمطبات التي كنت أراها جيدًا ورغم ذلك اصطدمت بإحداها متعمدًا وأوقفت السيارة مدعيًا أن بها عطلاً ونزل المسكين خلفي ليتفحص معي السيارة ولم أمهله لحظة فقد أخرجت المسدس وصوبته إلى جبهته، كان المكان يخلو من الشهود إلا تلك الرياح الباردة التي كانت تلفح وجهينا وزراعات القصب التي تهتز مضطربة من هول ما ترى وذلك الوجه القمري الذي كان يحدق فينا من عل ويرسل أنواره الفضية فأبصر من خلالها نظرة الدهشة الممزوجة بالذعر تعلو وجه جامع قبل أن أطلق تلك الرصاصة

على جبهته فأرديه قتيلاً ، وتركته في مكانه وهربت عائدًا بعد أن أخذت تليفونه المحمول وحطمته وألقيته في الترعة لأني كنت أدرك أن رقم هاتفي مسجل عليه...

حين قال حسن جملته الأخيرة ندت عن وكيل النيابة ابتسامة خفيفة لم يلاحظها كاتب النيابة المنهمك في تسجيل كل ما يقوله حسن بدقة وسرعة وكذلك حسن نفسه الذي برغم أن عينيه كانت تواجه عيني وكيل النيابة الجالس أمامه إلا أنه في الحقيقة كان مستغرقًا في النظر داخل حنايا نفسه يستخرج منها الأثقال التي روعتها في الأيام السابقة ويلقي بها خارجًا في صورة كلمات يعلم مسبقًا أنها ستؤدي به إلى حتفه ، أما وكيل النيابة فقد كانت ابتسامته بسبب ذكر المتهم أنه قام بالتخلص من الهاتف المحمول الذي يخص الضحية خشية أن يعثر بطريقة ما على سجل المكالمات المدون عليه اسمه حتى وإن قام بحذفه من الهاتف ، هكذا كان يحتاط القاتل وهو لا يعلم أن شركات الهاتف تحتفظ بسجل لمكالمات عملائها يتم الحصول عليه فور إذن النيابة بذلك ، وهكذا يظن كل قاتل إنه قام بالجريمة الكاملة وهو لا يدري أنه لا جريمة كاملة في هذا العالم المليء بالثغرات...

هذا ما كان يدور في عقل أحمد مهدي بينما حسن مستغرق في سرد وقائع ما جرى معه بعد أن غادر مكان الجريمة :

ـ عدت سريعًا إلى شقتي بقنا ، لم أنم ليلتها بدأت أشعر بفداحة ما فعلت وظلت عينا جامع الفزعتين المدهوشتين تطاردني ، وفي الصباح قررت أن أذهب إلى الدائنين الذين يطاردوني وألقي في وجوههم الأموال التي استدلوني بها ثم أفكر بعد ذلك ما سأفعله ببقية الأموال ولكن هاجسًا مفاجئًا داهمني

كوسواس قهري حاصرني ولم أستطع الفكاك منه، كان ذلك الهاجس يوحي لي بأني على وشك السقوط في أيدي الشرطة رغم كل ما فعلته من احتياط وتحطيمي للهاتف المحمول وعلمي أنه عندما تحدث في الهاتف بجواري لم يذكر شيء عني بل حتى لم يخبر الطرف الآخر أنه يستقل سيارة تاكسي في طريقه للسلامية مع العلم أن المسافة بين السلامية والشيخ موسي يمكن قطعها سيرًا على الأقدام خاصة مع انعدام المواصلات في تلك الساعة من الليل وأن ظنون المحققين سوف تتجه إلى لصوص المنطقة وقطاع الطرق هذا ما اعتقدت أنهم سيظنونه حين يصطدمون بمشهد جثته صباحًا ولكن ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى قال لي صوت داخلي: ومن أدراك أنه لم يتصل بزوجته أو أي شخص آخر قبل وصولك، ومن يضمن لك بأنه لم يذكر حينها أنه اتصل بتاكسي سيأتيه من قنا واسم سائقه حسن شاكر وانتفض جسدي لوقع ذلك الهاجس وأبى النوم أن يأتيني ولو كزائر مستعجل للرحيل وتتابع على رأسي سيل الأسئلة، ما الذي دفعني لاقتراف ما فعلت... وعلى الفور وجهت سهام اتهامي إلى أولئك الذين أحالوا حياتنا جحيمًا فرفعوا أسعار الوقود وتفننوا في اختراع ضرائب جديدة ومضاعفة القائم منها فشح الرزق وقلت الزبائن وكثرت الديون... ولكن سرعان ما طعنني صوت آخر ليذكرني بأن حائط الحجج الذي أبنيه لأجعل منه ساترًا أختبئ خلفه من مواجه ضميري هو في الحقيقة حائط هش... ففي النهاية لم يتحول كل الذين اكتووا بنار الأسعار إلى قتلة كما أصبحت أنا وشعرت زوجتي الراقدة بجواري بتململي ففتحت لي استجواب لم ينتهِ إلا بمغادرتي الغرفة حانقًا ورحيلي عن

المنزل في اليوم التالي حتى حدث ما كنت أخشاه وأتخوف منـه وتم القبض علي وأنا فـي طريقي لمغادرة الفندق الذي كنت أختبئ فيه.

صمت السـائق حسـن معلنًا فـراغ جعبته مـن تفاصيل جديدة بينمـا نـدت عن وكيل النيابة نظرة اطمئنان لما آلت إليه القضية فـي النهاية، فها هو القاتل الحقيقي يُلقى القبض عليه وبصحبته أموال الضحية وها هو يدلي باعتراف تفصيلي عما حدث لا ينقصه سوى القيام بتمثيل الجريمة لتُقدَم القضية مكتملة الأركان إلى القضاء ليحكم فيها.

ـ أمرنـا نحـن أحمد مهدي وكيل النائب العام بحبس حسـن شاكر محمود 15 يومًا على ذمة التحقيق... ويتم الإفراج عن كل مـن "أنس" عبد الفتـاح الجبالي، وغالب همام، ومَوَدّة راشد أبو مكي بضمان محل إقامتهم.

***

٢١

الكاتب

الساعة الحادية عشر صباحًا... الشمس ساطعة تمد الأرض بدفء حنون... والسماء صافية إلا من بضع سحابات تلعب بها الرياح الراحلة في اتجاه الأحبة في الجنوب بينما هي تكافح للبقاء في المشهد؛ ربما لتذكرنا بأننا ما زلنا في فصل الشتاء لم نغادره بعد...

كانت الساعة حوالي السادسة صباحًا حينما غادرت السلامية، وها أنا ذا أجلس في استراحة على الطريق الزراعي السريع الرابط بين القاهرة ومدن الجنوب المترامية على طول الوادي...

أمسك بين يدي جهاز "اللاب توب" الخاص بي والذي نقلت إليه ما سبق وأن دَوّنته على الورق أثناء فترة احتجازي، الرواية التي بدأتها على وشك النهاية، كما تعلمون فقد تم القبض على القاتل الحقيقي وأفرج عن المتهمين الثلاثة وبقي أن نعرف ما كان من أمرهم بعد زوال تلك الغمة عنهم.

***

٢٢

غالب

سماء قرية الشيخ موسى محتشدة بالنجوم، لا يحول بينها وبين العيون الناظرة سحبًا هائمة أو قمرًا منيرًا ، وأهل القرية قد استردوا حياتهم المعتادة بعد القبض على قاتل جامع صالح وإن ظلت تلك القضية محور اهتمامهم ومصدر أحاديثهم...

أما غالب فهو في تلك الليلة يجلس وحيدًا على المصطبة الإسمنتية أمام منزله وبجواره نرجيلته المتوهجة بالجمرات وقد ضعف جسده وكسا الشحوب وجهه بعد أن فقد ملامح الطمأنينة الممزوجة بالصرامة التي كانت تميزه...

أما أهل القرية ففسروا ذلك بأنه يرجع إلى حزنه على فقده ابن أخيه الوحيد والخبثاء منهم أرجعه إلى فرح مفاجئ بعد أن آلت إليه ثروة من ميراث ابن أخيه...

ولكنهم جميعًا بهتوا ولم يجدوا تفسيرًا مقنعًا عندما أعلن غالب فجأة عن تخليه عن تلك الثروة حتى أبناؤه أعلنوا غضبهم جهارًا أمامه، ولكنه تجاهلهم وأنزوا على المصطبة يقضي عليها جل نهاره وليله...

وهل يستطيع أن يخبرهم بأنه حين كانت أصواتهم ترتفع معترضة في وجهه كان جامع يقف خلفهم تلمع عيناه بنيران الغضب، وحين هم بأن ينبههم أبصره وقد قذفه بابتسامة ساخرة ثم تلاشى من أمام عينيه وكأنه حلم عابر...

وهل يستطيع أن يخبرهم بأنه حين كان يتلقى العزاء في

المندرة كان جامع يجلس في الدكة المقابلة وكلما ترك غالب مكانه وجده في أثره كتابع مخلص يرفض مفارقته، والآن وهو يسحب نفس عميق من نرجيلته ويرسله في الهواء ويرد بتثاقل على التحيات التي تلقى عليه من المارة...

هل يستطيع أن يخبر الجميع أن أمنيته الوحيدة الآن هي أن يتركه جامع يكمل ما بقي له من عمر دون مطاردته في صحوه ومنامه.

***

٢٣

مودة

شعاع الشمس يتسلل ببطء إلى الغرفة تصحبه نسمات منعشة لهواء نقي أرسلته الزروع ترحيبًا بعودتها إلى دار أبيها...

"مـوَدّة" ليست نائمة بل هي في كامل يقظتها منذ انطلق صياح الديكة معلنًا بداية يوم جديد، تتأمل الجدران والأبواب والنوافذ وحتى العصافير التي تصدح لاهية أعلى شجرة التوت خارج النافذة، وكأنما ترى تلك المشاهد لأول مرة أو كأن تجربة الحبس التي مرت بها جعلتها ترى كل شيء من منظور جديد، تركت عزيزة نائمة على السرير المجاور وصعدت إلى الغرفة العلوية...

تأملت المرآة الصغيرة المثبتة على الحائط بجوار الباب، ما زال جو الغرفة معبق برائحة اللقاء الأخير، هنا كان جامع يقف يخبرها باعترافه، وهنا سمعت منه كلمة أحبك قالها وقُتل في الليلة التالية...

كم أرقها التفكير فيما جرى، هي لم تكن تحبه وأيضًا لم تكرهه، كانت مشاعرها نحوه بين بين، وهل يستطيع الإنسان أن يحيا بين بين، وهل حقًا كانت تعيش حية بين الأحياء؟!

تردد صوت داخلها:

ـ أعلم أني كنت وحدي في حياته ورغم ذلك لم يكن هو يومًا وحده في حياتي، كان دائمًا الماضي يشاركه فيّ.

كانت الأحداث أكبر منها ولكنها رغم كل شيء شاركت

فيها منذ البداية، بضعفها واستسلامها تارة، وبأنانيتها واندفاعها تارة أخرى، وأمس فقط أدركت أنها خرجت أقوى مما كانت، لقد اتخذت قرارها وحددت مصيرها وآمنت أنهم من البداية لو أعطوها حق الاختيار لربما رفضت طلب "أنس" الزواج منها كما رفضته أمس.

غادرت الغرفة وهي تشعر بنشاط يغمر كيانها، ارتفع صوتها داعيًا عزيزة للاستيقاظ واتجهت لباب المنزل ففتحته ليندفع هواء الصباح للداخل ومعه روائح الزرع التي طالما أحبتها.

***

٢٤

أنس

الساحة الواسعة أمام منزل عبد الفتاح الجبالي تلك التي تعودت على زحام المصلين والباعة في أيام الجمع أو المصلين والمشيعين في المآتم هي نفسها الليلة تشهد احتفال أهل القرية ببراءة ابنها "أنس" من تهمة قتل جامع صالح، المقاعد تملأ المكان وقارئ القرآن يصدح بصوته بينما تنهال المشروبات على الحضور ومعها عبارات الترحيب والمودّة من عبد الفتاح وابن أخيه حسنين وبقية أفراد الجبالية، أما "أنس" عريس الليلة فكان في عالم آخر، صحيح أنه يجلس على دكة تتوسط الجمع إلا أن عقله وخياله كان مشغولاً بتأمل ما كان وما هو كائن من قصته...

صوت القارئ يزداد علوًا وتنغيمًا ويتجاوب الواقفون والجالسون بينما غلام بصينية تحمل مشروبات ساخنة يسعى بينهم بخفة ونشاط فتمتد أيديهم تنهل منها حتى إذا ما وقف أمام "أنس" انتبه له وبادله ابتسامة شاكرة ثم تناول منه كوب شاي احتسى منه رشفة قبل أن يلمح أباه وهو يسلم على راشد أبو مكي ويُجلسه بجانبه على إحدى الدِّكك فيتمتم، سبحان مغيّر الأحوال ثم يتذكر ما جرى أمس في بيت راشد حينما ذهب بصحبة أبيه وبعض أهل السلامية لتهنئته بظهور براءة ابنته...

كانت حالة التآلف التي تغمر الحضور نادرة الحدوث ولكنها حقيقة صنعتها المحنة التي تعرضت لها سمعة القرية في الأسابيع الماضية... وتبادل الرجال الحديث وارتفع صوت الضحكات... وشم "أنس" نسائم الرضا وقد غمرت القلوب وفاضت على الوجوه

فنبت في داخله خاطر سرعان ما فك قيده وألقاه على أسماعهم...

لقد طلب الزواج من "مـوَدّة" وفغرت أفواه الحاضرين دهشة وتبادلوا النظرات الصامتة غير أن راشد أبو مكي لم يظهر استنكارًا وكأنه استسلم أخيرًا ولم يشأ أن يكرر ما فعله قبل سبع سنوات، بل رد قائلاً:

ـ إنه يتشرف بمصاهرة عبد الفتاح الجبالي...

وإن استطرد بأن المهم هو رأي "موَدّة" ذاتها...

وبدا أن الأمر سينتهي عند هذا الحد وإن كانت الليلة أبت إلا أن تكمل ما خبأته من مفاجآت، فقد استدعى راشد بنته "موَدّة" لتدخل عليهم وقد تورد وجهها وتألقت عيناها العسليتان ببريق الثقة وجلست بجوار أبيها الذي أخبرها بطلب "أنس" يدها فما كان منها إلا أن أعلنت رفضها بكلمات حاسمة...

كان قرارها مفاجأة جعلته يعيد النظر في كل مسلماته السابقة، وانتبه من أفكاره فجأة على وقع أقدام رجل طويل القامة مهيب الطلعة يتقدم نحوه وقد رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة...

فوقف "أنس" ليتلقى تحية الرجل الذي صافحه بحرارة وهو يقول كلنا كان يثق في براءتك ولكن اعذرني فأنت تعلم مركزي المهم بالحزب ولكن الآن أدعوك مرة أخرى لتنضم لنا وأعدك أن تكون على رأس قائمة في الانتخابات القادمة...

ورد "أنس" عليه بعد أن ندت عنه ابتسامة واثقة وقال:

ـ لا يا سيادة النائب مثلي ليس له مكان بينكم...

وبُهت عبد المعز وغادر المكان يجر أذيال خيبته وهو يشعر أن عيون المحتشدين في الساحة جميعًا مصوبة نحوه كسهام نارية تود لو انطلقت باتجاهه...

وعـاد "أنس" إلى مجلسـه يداعب أصدقاءه تـارة ويقف ليحيي المهنئين تارة أخرى، كانت كلمة "لا" هي المفتاح وهي السر الذي جلب له أخيرًا السكينة التي كانت تبحث عنها نفسه الحائرة...

انتهـى الاحتفال وأخبر "أنس" أباه بنيته في العودة إلى القاهرة في الغد وأنه لن تنقطع صلته بالسلامية بعد الآن.

***

٢٥

الخاتمة

أخيرًا أطوي "اللاب توب" وأضعه في حافظته، شمس الظهيرة الدافئة الرحيمة تغمر المكان، ونسائم باردة تداعب وجهي ورائحة القهوة تتسلل إلى أنفي فأستنشق نفسًا عميقًا وأبتسم لطفل يجري لاهيًا بجانبي، النادل يتحرك بنشاط بين الزبائن فتداعب خيالي ذكريات مقهى زهرة البستان، ينتفض هاتفي الراقد أمامي على المنضدة منبئًا عن استئناف نشاط لم يهدأ منذ أعدت إليه الحياة، ألتقطه وأرد قائلاً:

ـ ربما لن تصدق أنه قبيل اللحظة التي تهاتفني فيها كان صوتك يدوي داخل خلايا رأسي...

يجلجل بضحكته المعهودة ويقول:

ـ المهم أن يدعوك ذلك الصوت للعودة إلى القاهرة...

فأقول مداعبًا:

ـ نعم قال لي ذلك وأنا الآن في طريقي إليكم...

يبتهج لطفي ويقول:

ـ نحن جميعًا في انتظارك...

أتجه إلى سيارتي التي أخذت كفايتها من الراحة وأنطلق صوب العاصمة.

***